ISMAIL KAFKA'S ROOM

شيماء هشام سعد

غرفة إسماعيل كافكا

OPIA
LISHING
USE

رواية

إهداء

إلى أمي دائمًا وأبدًا، هذه الديون لا يمكن سدادها.

«أريدُ أن أُسافرَ في النجوم، وهذا البائسُ -جسدي- يُعيقُني»

فنسنت فان جوخ

بعد قرابة عشرين عامًا من الشلل التام وملازمة الفراش، قرَّر إسماعيل أن يموت يوم الجمعة، وإذا كان اليوم هو الثلاثاء فإن أمامه ثلاثة أيام قبل أن يفعل ذلك.

بالطبع إن هناك أسئلة كثيرةً تفرض نفسها عند معرفة شيء كهذا، مثلا: كيف سيتمكن إسماعيل من الموت بنفسه وهو مشلول تمامًا ولا يستطيع تحريك عضلة من عضلاته حتى لسانه، لكن يمكننا الظن أنه مادام قد قرَّر بهذه الصرامة المثيرة للإعجاب، بل وضرب موعدًا، فإنه يمتلك خطةً ما، خطة لا يلزمه فيها أن يتحرك، ويؤدي نجاحها إلى موت كليٍّ لا رجعة فيه، لأنه بالفعل مات كثيرًا حتى اليوم، ولكن كانت كلها ميتات غير كافيةٍ لاستخراج شهادة وفاة، وبالتالي لإطلاق سراحه. هناك أيضًا سؤال يابس يصلح لإضرام نار في نفْسِ إسماعيل شخصيًّا: إذا كان الموت هو الحل لمأساته، وكان يستطيع أن يفعلها، فلماذا انتظر عشرين عامًا؟ لماذا لم

يطلق رصاصة الرحمة منذ تأكد له ألَّا مخرج له من محبسِ جسده؟ هل يُمكنه الآن أن يلوم نفسه لأنه ساهم في ديمومة عذابه كل هذا الوقت بعدم اتّخاذه هذا القرار قبل الآن؟ ولماذا تأخر؟ أهي يقظة ضميره الذي لم يمت مع كل ما مات فيه؟ أم أنه لم يخطر له أصلا الموت كخيار مطروحٍ؟

ثم لماذا يوم الجمعة بالذات؟ إذا كان يستطيع أن يفعلها فلماذا ليس الآن؟ وهذا سؤال -عكس الأسئلة السابقة- نستطيع أن نجيب عليه بشيئين؛ الأول أنه سيُتمُّ عامه الثالث والستين من الحياة هنا يوم الجمعة، وهو يرى في اختيار اليوم نفسه للموت معنى ما وإن كان لا يُحسن سبر غوره تمامًا. والسبب الثاني أنه وإن كان صادقًا في رغبته وصارمًا في قراره أن يموت فإنه أيضًا لا يستطيع أن يفعل هذا فورًا، لأنه يعتقد أن الموت رحلةٌ عليه أن يُجهِّز نفسه لها، ويُوقن أن أسئلةً كثيرة ستُطرح عليه بعد موته، وهذا يُحتِّمُ عليه أن يقوم بجرد شاملٍ لذاكرته كما لو كان ربَّةَ منزل تجمعُ حاجاتِها استعدادًا للانتقال؛ بدقةٍ متناهية ونظام صارم، هادفةً لئلا تنسى شيئًا لن يسعها بعد سفرها الطويل والنهائي أن تعود لالتقاطه، ومن البداهة أنَ هذا يتطلَّب منه الوقت.

على الرغم من كل شيء فإنه يجد في نفسه الآن حماسَة من نوعٍ غريب، حماسَة لا تتَّسق أبدًا مع حقيقة أنه تحمَّل

مأساته كل هذا الوقت دون أن يُقدِم على شيء كهذا، إنه يتحمس الآن لتنفيذ خطته على الرغم من أن صبره طوال تلك السنين يوحي بأنه ليس رجلًا من النوع الذي قد يفكر في إنهاء حياته، لكن لم لا؟ ألن يتخلص من قيوده بعد ثلاثة أيام؟ كما أن فكرة استخلاص عصارة حياته وتكثيفها في دروس تستحثه للبدء فورًا، لكن التأنِّي ضروري حتى يضع خطةً للحفاظ على ذهنه بعيدًا عن التشتت.

ستدخل زوجته الغرفة بعد دقائق لتُعطيه دواءَه، ثم ستعود بعد ساعتين لتغيِّر له حفَّاضه قبل النوم، إن مريم تدخل غرفته ثماني مرات في اليوم، هي هكذا تمامًا:

-في السابعة صباحًا تأتي ومعها منشفة وطبق فيه ماء مخلوط بمطهِّر لتنظيف جسمه وحفَّاضٌ جديد لاستبداله بالذي نام فيه، تنقله إلى كرسيِّه المتحرك -وإن كان لا يتحرك به إلى أي مكان- تفتح له المِذياع وتفتح النافذة إن كان الجو دافئًا.

-في الساعة الثامنة تأتي لتعلِّق له المحلول وتصله بأنبوب التغذية الذي يمرُّ عبر أنفه إلى معدته.

-في الساعة العاشرة والنصف تجيء لتغلق المِذياع.

-تعود للمرة الرابعة بعد ساعة ونصف لتنقله إلى السرير مرة

أخرى وتُغلق شيش النافذة تحسُّبًا لقيلولة محتملة.

-في الثالثة بعد الظهر تأتي لتعطيه دواءه وتفتح المِذياع والنافذة مرة أخرى.

-بعد المغرب تدخل لتحقنه بدواء توسيع الشعب الهوائية وتغلق المِذياع والنافذة مع حلول الظلام.

-في الثامنة مساءً تجيء بمحلولٍ تغذية آخر وبأدويةٍ مختلفة عن كل ما سبق.

-في العاشرة تدخل لآخر مرة في اليوم لتُجهزَه للنوم.

عليه أخذ مقاطعاتها المستمرة في الحسبان، ومن حسن الحظ أنه يعرف لها مواعيدَ ثابتة، ربما عليه أن يكون ممنونًا لمريم من أجل ذلك إلى جانب كل خدماتها الأخرى، وهذا شيء من الأشياء التي يتوجب عليه أن يُدققها تحت المجهر خلال الأيام القادمة؛ زواجه المكسور وعلاقته المرتبكة بمريم. شعر بانقباض في صدره عندما خطر له ذلك، لسنواتٍ طويلة قال لنفسه إن علاقته بزوجته من الجرائم الثنائية التي لا يكون أحد طرفيها المخطئ، تُسرق منهما أشياء كثيرة وليس أحدهما اللص، وتُقتَل أشياء أخرى وليس أحدهما القاتل، علاقة لا يمكنك فيها أن تُلقي باللوم على أحد طرفيها فيما وصلا إليه، وفي الوقت نفسه لا يسعُهما أن

يتخلَّصَا من الشعور بأنه موتورٌ ومُضحَّى به.

عندما أصيب بالشلل عام ١٩٩٠ كان يعتقد أن هذا وضع مؤقت، باع الأطباء لأهله الأمل في شفائه طوال خمس سنوات كفُّوا بعدها عن الخداع وتزيين الحقائق سواءً لتحقيق المنفعة أم لتخفيف الوطأة، في البدء كانت مريم تتكلم معه، وبصرف النظر عن أنهما لم تكن بينهما مساحة زاهِيَة من الحوار يومًا ما، فإنها كانت تكلِّمه في السنوات الخمس الأولى، كانت مرتبِكة وضائعة، وجدَت نفسها فجأة في خِضَم تجرِبة جديدة لا تمتلِك لخوضها ما يكفي من المعرفة أو الجاهزية، لم يكن صعبًا أن تعتاد على رعايته بشكل يومِي رعايةً مكثفة، بل استطاعت في وقت قياسي أن تؤسِّس له نظامًا ضبطته على الساعة واستطاع استنتاجه بالملاحظة، ما كان صعبًا عليها هو أن تعرف كيف ستتعامل معه، كيف ستفهمه وهو لا يتكلم ولا يستطيع أن يُشير.

في البدء كانت تحاول أن تتوقع ما قد يرغب فيه قياسًا على عاداته وكل ما عرفته عنه خلال ست عشرة سنة من الزواج سبقت إصابته، استطاعت أن تدمج بعضَ ما اعتاد أن يفعله بالشكل الذي أمكنَ لها في ذلك الروتين اليومي الذي أسسته له، وباستثناء ذلك كانت تقف حائرة لا تعرف إذا كان ما تفعله له كافيًا، إذا كان يريد شيئًا ولا تستطيع تقديمه له

لأنها لا تفهمه، وإذا كانت هناك طريقةٌ معينة باستثناء ضبط مواعيد المحاليل والأدوية يتعامل بها الناس مع مصاب بالشلل، كان يراها تحاول، يرى الجهد الذي تبذله من خلال دأبها على الكلام إليه كل يوم، كانت تحكي له أولًا بأول كل ما يحصل في البيت، نجاحات ابنه الأكبر في المدرسة، ظهور سن جديدة لابنته الصغرى، ومشاغبات الابن الأوسط التي لا تنتهي وشكاوَى الجيران منه، كانت من فترة لأخرى تغيِّر الأسلوب وتنتهج نهجًا مختلفًا في الحكاية، تنتقي نوعًا آخر من الأخبار التي تنقلها إليه، أو تمتنع عن الكلام في أوقات بعينها وتعزو صمتها لأنها استنتجت بطريقة ما أنه لا يُفضِّل سماع شيء في الوقت الفلاني، ولم تقُل له في أيَّة مرةٍ كيف تستنتج رغبته أو عدمها، وكان هذا من الأشياء الكثيرة التي ودَّ أن يعرفها.

ظلت تكلمه كل يوم طوال خمس سنين، ما أبقاه -إلى حد ما- على علم بما يدور في البيت والعائلة، لكن عندما توقفت عن الكلام اعتقد أنها أدركت كونه لن يُشفى؛ ولذلك راحت تعاقبه بالصمت، فهم أن مقدرتها على أن تلعب دور الزوجة المضحية قد تآكلت ونخرها صدأ اليأس، وعلى الرغم من ذلك، لم يشعر ساعتها بأنه يحقِد عليها، بل كان يشعر بالخَجَل منها، وكان يتساءل كثيرًا عما تشعر به تجاهه.

***

سمع صريرَ مفاصِل الباب ودخلت إليه ضجة غرفة المعيشة، «لقد جاءت مريم»، قال لنفسه، لكن القادمة لم تكن مريم بل الممرضة التي يستدعونها للاعتناء به عندما تتعب زوجته أو تملُّ، عرف أن ابنته جاءت إلى البيت قبل قليل وأخذت أمها معها إلى الطبيب، هكذا قالت له الممرضة مبررة وجودها المفاجئ، «استدعتني السيدة مريم لأجهزك للنوم لأنها ليست في البيت»، قالت له.

أستجيء ابنته لرؤيته هذه المرة أم ستغادر دون أن تسلِّم عليه كالمرات الثلاث السابقة؟ هذه أيضًا واحدة من مُترتِّبات المأساة من هذا النوع؛ أنك بالتدريج تكفُّ عن أن تكون مرئيًّا ومُهمًّا، شيئًا فشيئًا يُصبح وجودك عديمَ المعنى للآخرين، وتصير رؤيتك من وقت لآخر مجرد روتين لاستكمال الصورة العائلية، أو تماسكٍ مفاجئ لذاكرة لا تكفُّ عن إسقاطك سهوًا، أو واجبٍ مملولٍ وثقيلٍ يؤدَّى على مضضٍ للتخلص من ملامةٍ محتملة أو لتلافي عذاب الضمير.

عدَّلت الممرضة وضعيته ثم بدأت خلع سرواله، منذ عشرين عامًا تقريبًا يريد أن يخبر مريم نفسها أنه غير راضٍ عن أن تُعرِّيه كل يوم، والآن تُوكل هذه المهمة إلى هذه الممرضة السخيفة، إنها تتخذ قراراتٍ تخصُّه، ويرى إلى أيٍّ

حد لعينٍ لا تُناسبه تلك القرارات، ولكنه يرى دون أن يستطيع التعبير عن نفسه.

تنفس الصعداء عندما خرجت الممرضة، وإن ودَّ لو أنها لم تخرج قبل أن تتفقد الغرفة وترى مصدر الرائحة الكريهة التي لا تفارق أنفه منذ يومين؛ إذ كان يُخيَّل إليه أن مريم تتجاهل هذه الرائحة، «على الأقل لتشمَّ هذه المرأة الرائحة العفنة وتُحرج مريم بذكرها، ليكن لها فائدة واحدة بحق الله!»، قال في نفسه، هل تنتقم مريم؟ أتريد أن تُفهمَه دون كلماتٍ أنها لم تعد تأبه له؟ من الصَّعب أن يتخيل عدم وصول الرائحة إلى أنفها، فلماذا لا تعالج الأمر وتُريحه من هذا العذاب؟ أم أنها ترغب في رؤيته يتعذب؟

أليس إسماعيل قد انجرف منذ ساعة أو أكثر إلى التذمر والشكوى؟ لقد لاحظ ذلك، لا جدال في أنه يائسٌ وحزين، لكن إذا كان يبتغي أن تنجح خطته لتجهيز نفسه وحزم دروسه المستفادة في ذاكرته من أجل الموت، فإن عليه أن يتخلَّص أولًا من كلِّ شيء يمكن أن يُعطِّله أو يُشوِّش تركيزه، عليه أن يضمن وبصرامة تامة أنه لن ينجرف مرة أخرى وراء أفكار لا تعنيه فيما هو بصدد تنفيذه، الأمر أشد خطورةً وأكثر جديةً من أن يسمح لنفسه بكل هذا الشرود في أشياء تافهة لن تُفيد في نهاية الأمر، وإذا استمر على هذا المنوال

فسيكتشف يوم الجمعة -وهو الموعد الذي لن يسمح لنفسه أن يُخلفه أو أن يؤجل موته ليوم آخر- أن الوقت غافَلَه وتسرَّب منه، وأن الأيام الثلاثة لم تكفِ لحزم جميع أمتعته، وساعتها لن يكون هناك مفرٌّ من الموت ناقصًا وبدون استعداد كافٍ يحميه من خوفٍ مضاعف مما هو مُقدم عليه.

سيحفر إسماعيل في ذاكرته وسيستحضر ذنوبه، سيحاول أن يفهم كيف أصبح ما هو عليه وسيُحاسِب نفسه قبل أن يُحاسَب، ولكي يفعل ذلك عليه أن يتمتع بقدر كبير من الحِياد، ما يعني أن يتخلص من كل شعور بالرِّثاء على نفسه ومن كل شفقة عليها، وإذا كان سيحفر عميقًا في ذاكرته المتخَمة بأحزان كثيرة، فيجب أن يتخلص من نزعته إلى الدراما في معالجة هذه الذكريات الحزينة، لأن هذه النزعة من شأنها أن تفسد كل شيء خطَّط له، لا يريد أن يثبت لنفسه أنه رجل حزين، هذا شيءٌ يعرفه بطبيعة الحال، لكن الحزن لا يُقلِّمنا من أخطائنا، كما ولن يُجرى لنا حَسْمًا على فاتورة الحساب لأننا كنا حَزانَى.

حسنًا؛ يستطيع الآن أن يرصد شيئين من الممكن أن يحرفاه عن هدفه..

الأول: شروده في تفاصيل غرفته والذكريات المخزونة فيها.

الثاني: الإحساس بالأسى على شيءٍ من الأشياء العادية جدًّا التي أحزنته على نفسه كونه لم يستطع طوال عشرين عامًا أن يفعلها.

وبالتفكير قليلًا، وجد أن لديه طريقةً فعَّالة لتلافي حدوث أي من المشكلتين، وهو أن يستهلكهما مُسبقًا ليقطع على نفسه طريق الهرب، لأنه لا ينتظر من نفسه أن يكون الحفر في ذاكرته مُريحًا له، بل يتوقع منذ الآن أن يعاني من رغبة مُلِحة في الهروب من الألم المبرح الذي سيتسبب فيه الحفر.

قائمة الأشياء التي يشعُر إسماعيل بالرثاء على نفسه لعجزه خلال عشرين عامًا عن أن يفعلها:

أن يفتح نافذة غرفته قبل شروق الشمس، مُذ لازم الفراش وهو يرغب في هذا بشدة دون أن يفطن أحد.

أن يأكل لحم البط في غداء يوم الجمعة.

أن يقرأ كتابًا، هذا افتقده من أول يوم انطرح فيه على السرير، وتمنَّى لو أسدى له أحد من أهله أو أصدقائه معروفًا بالقراءة له.

ملحوظة: لا يعرف إسماعيل عن وجود كتب مسجَّلة صوتيًّا على شرائط كاسيت أو في ملفات صوتية على شبكة الإنترنت، لأنه لا يعرف الإنترنت أصلًا، ولو عرف ذلك لخلَّصه

من كل الأعذار التي كان ينتحلُها لمن حوله لعدم قراءتهم له.

أن يشُم عطره المفضل.

أن يرى نفسه في مرآة، وهذا لم يحدث قط منذ مرِض، ولا يدري لماذا لم يخطر لأي أحد من أهله أن يمسك له مرآة أمام وجهه، لقد بات يجد صعوبة حقيقية في تذكر ملامحه التي كانت، ناهيك عن جهله التام بشكله بعد مرور كل تلك السنين.

أن يخرج صورة حبيبته الأولى من الدُّرج الذي يخفيها فيه ويتأملها طويلًا ويُطفئ شوقه لوجهها.

أن يلمس ماءً جاريًا، كل ماءٍ مسَّه حتى اليوم كان مجرد بللٍ على منشفة، ما يجعله الآن يفكر في أن من ميزات الموت أن الرجل الذي سيُباشرُ غسلَه سيصبُّ عليه كمياتٍ وفيرة من الماء لأول مرة منذ سنين طويلة، يتمنى أن يُحسَّ ساعتها بملمس الماء على جلده.

أن يرى الشيب في رأسه ولحيته، فعشرون عامًا –تقريبا- في الفراش تجعله لا يُحس أنه يتغير، لكن طول الزمن يعني أنه قد شاب، ولكنه لم يرَ آثار ذلك ولو لمرَّة واحدة، ويُشعرُه بالشفقة على نفسه ألَّا يكون قادرًا على تخمين شكله في الشيخوخة.

أن يرى منظرًا غير منظر غرفته، غير الدُّهان المتآكل

للسقف واللون الحائل للجدران ومحتويات الغرفة القديمة، يريد أن يرى شيئًا واحدًا على الأقل غير هذه الأشياء.

أن يسمع صوت ارتطام ملعقةٍ بزجاج كوب الشاي، وأن يشرب شايًا.

أن يلمس المطر، يحس بقطراته على وجهه.

أن يدخِّن سيجارًا.

أن يسمع صوته، لقد أوحشه صوته ولا يعرف إذا ما كان تغير أو لا، أَظلَّ صافيًا أم نَصَبت فيه عنكبوت المرض الرئوي شباكها، أهو الصوت نفسه الذي أحبته نانا أم لم يعد ذاته.

أن يحكَّ ذقنه، وفي أوقات كثيرة يرغب في أن يحك أجزاء أخرى من جسده ولا يتوصل لطريقة يوصل من خلالها لزوجته أن تحكَّ له هذا الجزء أو ذاك.

أن يرى اسمه مكتوبًا على شيءٍ ما، على ورقةٍ، على جدار، أو حتى على منديل حمام، يريد فقط أن يرى شكل اسمه مكتوبًا لمرة.

أن يقضي حاجته ويغتسل منها، يتمنى بعد هذه السنين من النوم في قذارته أن يجرب مرة أخرى شعور النظافة.

أن يسبَّ طبيبه الأخير بكلمةٍ بذيئة، من المحزن ألا

يستطيع الإنسان أن يقتص لنفسه من طبيب يزعج راحته لأتفه الأسباب ودون نتائج.

أن يُطلِّق مريم.

وصفٌ تفصيلي لغرفة إسماعيل، واستعراض دقيق لذِكرَى كل شيء فيها له ذكرى:

بدءًا من يمين الباب، حيث الجِدار المواجه لسريره:

الموقد القديم..

يقع خلف الباب مباشرةً ويعوق فتحه بشكلٍ كامل، عندما يدفع أحد باب الغرفة ليدخل، ولا يكون سوى زوجته إلا نادرًا، فإنه يُضطَّر أن يحشر جسده في الفراغ الضئيل الذي توفره الفتحة الضيقة، لا يمر أحدٌ من هذا الباب ببساطة، وهو ما يشعره بالحنق والخيبة، إنه محشور هنا بين كل هذه الأغراض القديمة والمنسِيَّة، وتلك التي لم تعد صالحة للاستخدام.

عندما أُصيب بالشلل، هلعت مريم واعتراها غمٌّ عظيمٌ، استمرَّ ذلك لشهور، لسنتين أو أكثر قليلًا، وفي السنة الثالثة كان ابنه عمرو قد التحق بالجامعة، وبدون أن تقول شيئًا قامت مريم بنقله من غرفة نومه إلى هذه الغرفة، فعلت ذلك بمساعدة عمرو وفي صمت تام، حملاه كما يُحمل كيسٌ

ثقيل، ولم يكن قد خفَّ وزنه بعد، ووضعاه في هذه الغرفة على سرير معدنيٍّ مستعمل لم يكن قد رآه من قبل، ثم غادرَا الغرفة، غابت مريم لساعات كانت تصله فيها جلَبَة، أصواتُ جرِّ أثاث على الأرضية وأصوات تنفيض فراش، وحين دخلت عليه بعد ست ساعات لتُطعمه عشاءه قالت له فجأة بعد صمت طويل: «الولد التحق بكلية الطب، تعرِف هذا طبعًا، يحتاجُ غرفة مستقلة ليركِّز في مذاكرته، أنا أيضًا تركتُ الغرفة وسأنام من اليوم فصاعدًا في غرفة الأولاد.».

لم تقل أي شيء آخر، تمنى ساعتها لو شاركته مشاعرها، لو أنها قالت له: «إنهم يكبرون يا إسماعيل» أو «ابنُك سيُصبح طبيبًا مثلك»، لم تنطق مريم بأيٍّ من ذلك ولا بما يُشبهه، ولسنوات طويلة اقتصر كلامها القليل جدًّا معه على صيَغ تقريرية جافَّة أشبه بالبلاغات، أشياء تقولها بدافع الضرورة فقط ولا شيء آخر.

«إنها تعيش حياتها معهم خارج هذه الغرفة، تراقبهم وهم يكبرون وتباشر كل أمورهم الصغيرة والكبيرة، وحين تجيء إليَّ تصمت مثل حجر لعين».

لسنوات كان هذا ما يقوله لنفسه، يعتقد أنها تفعل ذلك عمدًا من أجل تعذيبه، حتى إنه يفكر أحيانا أنها نقلته لهذه الغرفة لتضرب حوله العزلة، لتفصله عن البيت، وإلا لماذا

تضع امرأة زوجها في غرفة الأغراض القديمة؟

لكنها للحقِّ لم تكن كذلك حين دخلها أول مرة، لم تكن كل هذه الأشياء هنا، لقد تكدَّست على مدار سنوات، عندما نُقل إليها لم يكن هناك إلا السرير ومنضدة صغيرة إلى جانبه وأشياء قليلة جدًّا لم يعد أكثرها يظهر الآن، وشيئًا فشيئًا نَمَت حوله كل هذه الكركبة، حين قالت له مريم إنها أيضًا تركت غرفتهما أحسَّ كما لو أنها تنفِي عن نفسها تهمة، واسَى نفسه بأنها على الأقل لم تفعل هذا إهمالًا له، وأنها ما زالت تعدُّ أحدًا ما عليها أن تبرِّر له ما فعلته أو تدفع من رأسه الظن السيئ تجاهها، لكنها بعد أشهر اشترت الموقد الجديد الذي كانت تحلم به، وحينها جاءت بالقديم إلى هذه الغرفة، وظلت تكثرُ الأشياء فيها فيتزحزح الموقد ليُوسّع مكانًا حتى حُشرِ خلف الباب وصار يعوق انفتاحه إلا بمقدار ما يستطيع المرء أن يدخل منه مستديرًا بالجنب بمشقة وحذر.

إن الفترة التي استغرقتها الغرفة لتتكدَّس إلى هذا الحد هي مراحل ضُمور وجوده في هذا البيت، من أبٍ وزوج ورأس عائلة إلى غرضٍ قديم في غرفة ضيِّقة لا ينفتح بابها إلا بمقدار ثلاثين سنتيمترًا دون أن يعترض أحد على ذلك، فمن سيهتم بسعة انفراج الباب إذا كان لا يدخل منه أحد، وإذا كانوا قد كفُّوا عن الحاجة إليه وكفَّ هو أن يكون مهمًّا

لأحدهم؟

«اقْبَل هذا يا إسماعيل أو لا تقبله، الأمران سِيان، هذه الغرفة هي الدليل الفاضح على تحوُّلك من حجر أساس البيت إلى طوبةٍ معطوبةٍ في الزاوية».

قال لنفسه بينما شعر بسخونة دمعة تدحرجت على وجنته ببطء قاتل، كان عليه أن يكون حذرًا، واحدٌ من أكثر الأشياء التي تُضايقه هو ملمس الدموع على وجهه، لا بسبب الملمس في حد ذاته، فقد كان شعوره بتناقص حجم الدَّمعة وبطء حركتها يعطيانه تصوُّرًا ما عن وجهه الذي يفهم بالقرينة أنه بات مُخدَّدًا بالتجاعيد، وإنما لأن هذه الدمعة من ناحيةٍ ستظل تسير على وجهه حتى تجفَّ من تلقاء نفسها، ومن ناحيةٍ أخرى سيضايقه الشعور بملمسها الجاف والمالح على خدِّه، ثم إنه سيخجل عندما تجيء مريم ويشكُّ فيما إذا كان لها أن تلاحظ أنه بكى، وما إذا كانت ستعير ذلك اهتمامًا، وهو يؤذيه أن تنتبه لها فتمسحها لأنه لا يحب أن يكون مثيرًا للشفقة، وفي الوقت نفسه يؤذيه أن تنتبه ولا يبدُر عنها أيُّ ردِّ فعل لأنه لا يستطيع أن يتصالح مع كونه لم يعد جديرًا حتى بشفقتها، حالةٌ من التناقض يقع فيها إسماعيل بشكلٍ متكررٍ كل يوم؛ إذ يخاف أن يرى الشفقة في عيون الآخرين، ومع ذلك يُحزنُه أنه لم يعد يرى منهم شفقةً أو شيئًا

آخر، رفضُ شفقتهم شيءٌ تُمليه عليه كرامته وعزةُ نفسه، لكنه في قرارته، في أعمق نقطة في قلبه، يعرف أنه لو خُيِّرَ بين التجاهل والشفقة لاختار الثانية. هذه واحدة من الأشياء التي يواجه نفسه بها من وقتٍ لآخر، أن المرض –وفي حالته هذه على وجه الخصوص- سلبه كبرياءه شيئًا فشيئًا، حتى تركه عاريًا تمامًا يتلهَّفُ إلى لمسةٍ على الوجه أو ربتةٍ على الكتف ولو كان يعرف أن هذه اللمسة أو تلك الرَّبتة معناها: «كم أنت يائس يا رجل!» أو كانتا مُرفقتَين بنظرةٍ تقول: «الحمد لله؛ على الرغم من كل مشكلاتي، لستُ مكانه!».

***

كرسيُّ أبيه..

ملتصقًا بالموقد كان يجثم هناك كأنه نكاية أو بصقةٌ في وجهه، كرسيٌّ مُنجَّد بقماش منقوش ظل محتفظًا بلونه ومتانته رغم أن البِلى طال كل شيء حوله، كل شيء في الغرفة متهالك حتى إسماعيل نفسه، لكن أباه لا يريدُ أن يهلك. أوصى أبوه النجار الذي صنع له أثاث زواجه بصنعه، اعتقد إسماعيل أن الأب سيأخذه لبيته، بيت العائلة، لكنه فوجئ به يأخذه مع بقية الأثاث إلى بيته هو، وفي غرفة الصالون وضعه على رأس الأرائك والكراسي جميعا، قال له: «لأجلس عليه عندما آتي إليك»، وشعر إسماعيل بالحنق

عليه، فقد فهم من فعلته أنه لا ينوي أن يدخل هذا البيت كضيف؛ يجلس أينما يجلس الضيف، لقد وضع هذا الكرسي في صدارة مجلس بيته كما لو ليقول له: «لا تحسب أنك بانتقالك إلى هنا تكون الرجل الأول هنا، هذا البيت مجرد امتداد للبيت الكبير، زائدة لحمية ليس إلا».

عندما تُوفي أبوه أمسك إسماعيل يد المِكنسة وظل يضرب الكرسيّ حتى أنهكه التعب، لكن دون جدوى لأن الكرسي لم يُصَب بشيء، لم تُنهَك ضغينته تجاه أبيه فحمله وكما لو كان ينتقم منه ألقاه في غرفة الأغراض القديمة، غرفة ضيقة سيئة التهوية تُطلُّ على المنور، كان هذا قبل إصابته بالشلل بسنتين، لم يكن يعرف أنه سيعيش في هذه الغرفة حتى الموت، وأنه إذ يلقي فيها كرسيَّ أبيه حتى لا تراه عينه الآن إنما يحكم على نفسه بعد سنوات برؤيته كل يوم منذ أن يفتح عينيه في الصباح حتى ينام. وهذه واحدةٌ من الأشياء التي فعلها باندفاع الجاهل ثم ندم عليها فيما بعد؛ مثل كل القرارات الخاطئة التي نتخذها بدافع من سوء التصرف ونلعن غباءنا عندما نجد أنفسنا متورطين للأبد في عواقبها الوخيمة، وإسماعيل بانفعاليته المفرطة كثرًا ما آذتْه قراراتٌ متسرعة من هذا القبيل، أشدها استفزازًا له هو مِروحة السقف في هذه الغرفة، حين جهَّز البيت قبل الزواج اهتمَّ بكلِّ غرفِه إضاءةً وتهوية، وجاء عند هذه الغرفة الضئيلة

التي كان يُتوقَّع لها أن تكون مخزنًا للمؤونة أو غرفةً مؤقتة لطفل وجهّزها كما اتفق، ما أنتج له الآن مِروحة سقف تتدلى تحتَ المصباح، فكلَّما اشتغلت والمصباح مُوقدٌ رقص الضوء في الغرفة بطريقة تثير أعصابه، وهو مضطرٌّ لمعاناة هذا الاستفزاز الذي يأكل أعصابه ببطء وضراوة؛ لأنه لا يستطيع أن يطلب من مريم تصليح وضع المِروحة، وهي لا تنتبه – بطبيعة الحال- لكون هذا يُثيره إلى حد الجنون.

***

حقيبتا سفرٍ كبيرتان..

إحداهما اشتراها من دكّان لبيع الأغراض المستعملة بوسط البلد، ما زال يذكر شكل البائع جيّدًا، بأنفه الأفطس وعينيه الغائرتين تحت نظّارة عدستاها بسُمك كوب الشاي في المقاهي البلدية، أدهشه وأدهش عبد الرحيم يومها حجم ما ينطوي عليه ذلك الرجل الرثّ متواضع الحديث من ثقافة وذكاء مكّناه من تحليل الوضع في لبنان بعد الاجتياح الإسرائيلي بحذق وإقناع أثارا إعجابهما. كانا يشتريان حقيبةً من أجل السفر إلى لبنان في صيف عام ١٩٨٢، إذ كان على إسماعيل تلبيةَ دعوة صديقه الفلسطيني منصور جميل أن يسافر للمساعدة في إعادة تشغيل مشفى عكا بعد تعطيله أيام الاجتياح، كان المشفى بموقعه الحساس في مخيم

شاتيلا من ضرورات الحياة للاجئين فلسطينيين في لبنان، وباعتباره واحدًا من أبناء اللاجئين في مخيم صبرا وطبيبًا في المشفى، كان منصور يرسل الدعوات يمينًا ويسارًا لكل من يعرفهم من زملاء الدراسة في القاهرة، المدينة التي وصل إليها بأعجوبة في أوائل السبعينيات لدراسة الطب.

كعادته كان عبد الرحيم يلتصق بإسماعيل في كل مكان يمكنه أن يصحبه إليه، وفي ذلك اليوم لم يكن يتحدث طوال الطريق ذهابًا وإيابًا إلا عن رغبته في الذهاب معه إلى لبنان، كان طالبًا في كلية الإعلام، مجال أبعد ما يكون عن الطب، لكنه كان مُصِرًّا على الذهاب بأيَّة طريقة كانت.

«لستَ طبيبًا؛ ماذا ستفعل هناك؟»

لم يكن سؤالا بقدر ما كان محاولةً للإثناء من إسماعيل الذي نفدَ صبرُه من إلحاح الصديق الصغير، كان دائمًا صغيرًا صغرَ عصفورٍ في الكف، يُشكِّل فارق السنوات التسع بينهما أبرز سمات صداقتهما الممتدة: المسئولية التي كان يشعر بها إسماعيل تجاه هذا المُلتصق به، وتململ عبد الرحيم من تجليات هذا الشعور بالمسئولية على صداقتهما، يحاول عبد الرحيم التخلص من هذا الحس الأبوي ولكنه يعود ليلتصق بإسماعيل التصاق طفل بأخيه الأكبر، ويحاول إسماعيل أن يُرشِّد من حماسة صديقه المندفعة، غير أنه يجده في أحيان

كثيرة أحكم منه، أشجع منه، وفي مرات كثيرة ينظر بحسرةٍ إلى مواقفه الجديرة بالاحترام ويزدري عجزه عن مثلها عندما كان في عمره، علاقة ملتبسةٌ بين صديقين، يود كلٌّ منهما في قرارةِ نفسه أن يكون مثل الآخر، وصداقةٌ رابضةٌ على فوَّهة بركان نشط ليس سوى نانا التي يتشاركانها كأختٍ من ناحية وحبيبة من الأخرى، وبالرغم من هذا لم يكن يعدل بعبد الرحيم كلَّ نعيم الدنيا.

«لكنني صِحافيّ، قل لصاحبك إن باستطاعتي أن أغطي أوضاع اللاجئين هناك، أعرف الطريق إلى نشر ما يمكنني أن أكتبه من تقارير صِحافية، إذا لم يقنعكما هذا تستطيعون استخدامي ممرضًا، أنا سريع التعلُّم وطويل حبال الصبر.».

لم يستطع إسماعيل أن يخلص منه في ذلك اليوم إلا بعدما استلَّ من شفتيْهِ وعْدًا بالمحاولة، وعلى عكس ما كان يتوقَّع جاءت مرافقة عبد الرحيم له سهلة وبلا عقبات تُذكر.

قد لا يذكر كثيرًا تفاصيل اليوم الذي سافرَا فيه، اللهم إلا نظرة مريم وهي تحشو الحقيبة بما يهم وما لا يهم والتعبير الغريب الذي لمحه في عينيها عندما عرفت أنه سيسافر مع أخي نانا، المرأة التي لم تزل شوكةً في حلقها منذ وقعت في حب إسماعيل، ولكنه يذكر جيِّدًا اليوم الذي عادت فيه هذه الحقيبة إلى البيت، ويذكر على وجه الخصوص كلَّ ما كان

فيها.

لم يكن المشفى عندما وصلَا إليه مأهُولًا بالعدد الكافي ولا حتى نصفَه من الأطباء والمُمرضين والموظفين، كانت رحلتهما من القاهرة حتى بيروت أيسر من انتقالهما من بيروت إلى أحراش شاتيلا حيث يقع المشفى، لا يمكن عزو الصعوبة إلى إجراءات أو غيرها بقدر ما كان مرجعها إلى شعوره بالانقباض في تلك الطريق، كان الجو هادئًا هدوءًا يُنذر بكارثة، يُضاف إلى ذلك الذهول الذي يعتري الإنسان عند دخوله منطقةً يعرف أن أهلها ثكالى وطنٍ مسروق، ضحايا تهجيرٍ وشتاتٍ، لاجئون في بلد آخر يُقال لهم فيه: «بوسوا أيديكم وجهًا لظهرٍ أننا نؤويكم». عندما لم يلمح إسماعيل وجه منصور في المُستقبلين وسأل موظف الجوازات في المطار عن كيفية الذهاب إلى شاتيلا نظر له الأخير نظرة ازدراء ونفى بعجرفة كونه يعرف، لم يحتاجَا إجابةً لأن منصور وصل بعد دقائق، استقلوا سيارة أجرة، وطوال الطريق كان يجثم على صدر إسماعيل غمٌّ هائل. عندما لاحت لهم أحراشُ المُخيم من بعيد شعر برجفة في قلبه؛ هذا إذن المكان الذي يعيش فيه بضعة آلاف منفيّ، هناك خلف الحرش يعيش أصحاب أرض في أرض أخرى لا يتوانى سياسيُّوها عن اعتبارهم عِبئًا في كل مناسبة ممكنة، ولا يوفِّر آخرون فرصةً لاتخاذهم غطاءً لمكاسب سياسية

ضئيلة من الممكن التخلي عنهم بسهولة في سبيل مكاسب أكبر منها، كان إسماعيل ينظر إلى الأحراش أمامه ولا يتصور أن المأساة بنفسها تعيش خلفها، لطالما نظر إليها من بعيد، كان النفي والإقصاء والشتات أشياء تحصل للآخرين فقط، يعجز عقله عن أن يستوعب أنه سيرى هؤلاء الآخرين الآن من قريب، سيتعامل مع أمراضهم غير المميتة وأحزانهم اليومية التي يتحاملون عليها من أجل ضرورة العيش، سيقف أمام المأساة وجهًا لوجه!

عندما وصلوا إلى المشفى كان هناك أطباء وممرضون وموظفون من جنسيات مختلفة، أدهشه وجود ممرضة أمريكية يهودية الديانة، شعر بالألفة تُجاه موظّف مصري بقسم الأشعة اسمه عُرابي، وعمل جنبًا إلى جنبٍ مع طبيبة نرويجية تسمَّى آن سوندي، آخرون وأخريات من جنسيات فرنسية ولبنانية وفلسطينية، جميعهم كانوا يعملون بدأب لإعادة تأهيل المشفى لخدمة اللاجئين، ولكنَّ دأبهم وحقيقة أنهم جاءوا من بلاد مختلفة للشيء نفسه الذي جاء من مصر لأجله لم يُخفِّفا من شعوره بالكآبة. كانت الطبيبة النرويجية في أوقات الراحة تتناقش معه في أوضاع اللاجئين ومستجدات الساحة السياسية، بدت على اطّلاع كبير استقزَمت إلى جانبه معرفته بما يدور في لبنان، أطلعته على شرائط أفلام تحتوي على مشاهد من الحياة اليومية في

المخيمات، وعلى حوارات أجرتها مع زوار المشفى من المُخيَّم مستطلعة فيها آراءهم عما يدور بشأنهم في أروقة السياسة، ولقاءات طريفة مع أطفال تسألهم عن أحلامهم فيُجيبون إجابات تُضحك وتُبكي، أحدهم يُخبرها أنه يتمنى أن يرى شجرة الزيتون التي حكى له عنها جدُّه ويقطف منها زيتونًا، وطفلةٌ قالت إنها تتمنى أن تتحول الأسلاك الشائكة إلى حلوى غزل البنات يأكلونها ويمرُّون منها ببساطة. طفل تمنى أن تكون عنده درَّاجة هوائية. آخر حلمُه أن يسكن بيتًا لا تخترق سقفه الأمطار كل شتاء. أدهشت إسماعيل هِمَّة آن في توثيق معاناة بشر لا يمتُّون لها بصلةٍ سوى الإنسانية، جُهدٌ توثيقي جبَّار كانت تبذله إلى جانب عملها في المشفى، عرَّفها إلى عبد الرحيم؛ إذ بدَا له أن تعارفهما سيفيدهما معًا بطريقة ما.

لأيام تالية، بدتْ له طويلة جدًّا، كان ينغمس حتى أذنيه في معالجة لاجئي المخيَّم، يضع السماعة على صدر مُسِنٍّ ويكتب دواءً يعرف أن الحصول عليه ليس سهلًا، أو يُغيِّر ضماد امرأةٍ وينصحها بضرورة تقليل الحركة وهو يُعرف أن الراحة في خصومة مع العائشين تحت هذه الظروف المُزرية. كان كل شيء رتيبًا لكنه كان يتضخَّم في قلبه لشعوره بأن هؤلاء ليسوا مرضى عاديين، إن أقل أمراضهم هو ما جاءوا ليتعالجوا منه، كان يشرد كثيرًا ويُفيقه من شروده منصور،

يتفهَّم حالة الوجوم التي تعتريه، ويراها وهو المعتاد على المخيم وناسِه ردَّ فعلٍ طبيعيًّا من زائرٍ ما زالت حساسيته تُجاه المآسي عالية لم يخفف منها العيش في قلب مأساة والاضطرار للتعامل بعاديّة.

أما عبد الرحيم، فقد كانت تُدهش إسماعيل ومنصور معًا رؤيتُه متحمِّسًا، خاصةً عندما يحمل حقيبته الصغيرة بعد انتهاء مناوبته موظفَ استقبال ويخرج، يقضي ساعاتٍ ثم يعود ليحكي عن صورٍ التقطها للأزقَّة والأطفال وعن حوارات أجراها مع مسنين وربَّات بيوت، لم يحكِ قط عن صعوبة واجهته في دخول المخيم وإن كان منصور يُدرك أن هذا ليس سهلًا، كان من الواضح أن عبد الرحيم لا يعدم الحيلة ليدخل بعدسته وآلة تسجيله، لقد كان رجلًا من نوع مختلفٍ تمامًا عن صديقه، من النوع الذي عندما يقف في قلب مأساة ينظر حوله بعينين مفتوحتين يملؤهما عن آخرهما بما يرى ثم يقول: «والآن؛ ماذا علينا أن نفعل حيال هذا؟»، كان من الشباب البريء الذي يرى في نفسه دائمًا القدرة على فعل شيءٍ ما حيال أي شيء.

لأسبوعٍ أو أقل قليلًا كان يدخل المخيم ليقضي ما ذهب لأجله ويعود، لكنه في يوم الأربعاء ذاك لم يستطع الدخول، عاد إلى المشفى ليُخبر إسماعيل بما رآه؛ دبابات إسرائيلية

تُطوِّق مداخل المخيم، هجس له بأن شيئًا سيئًا سوف يحدث، ولم يكونا يعرفان السبب حتى سمعا حولهما بمقتل الرئيس اللبناني بشير الجميّل، واجتياح القوات الإسرائيلية لبنانَ على إثر ذلك، قيل لهما إن هذا كارثي وينذر بشؤم؛ إذ إن بشير الجميِّل كانت له تصريحات مُعادية ومُستحقرة للاجئي المُخيّمات، بل كان يتوعد صراحة بقتلهم، وبقتل بشير ستتوجه أصابع الاتهام مباشرة إلى اللاجئين في صبرا وشاتيلا.

بعد قرابة ساعتين دخل جنود إسرائيليون المبنى بحجة شراء أطعمة من الكافيتريا، سألوا عما إذا كان يختبئ في المشفى أيٌّ من عناصر المقاومة، نفى مدير المشفى وأكد أنه ليس فيه سوى المرضى والطاقم الطبي والموظفين، وعلى الرغم من ذلك، طاف بعض الجنود بتكاسل على بعض الغرف كأنما للتأكد، ولم ينسوا أن يضعوا الـ«بونبون» في أكُفٍّ من وجدوا من الأطفال.

في مساء ذلك اليوم اجتاحت ميليشيات حزب الكتائب اللبنانية المخيم الذي كان مُطوَّقًا بالفعل بالدبابات الإسرائيلية، وبعد منتصف الليل بدأ سكان المخيم يتوافدون إلى المشفى يسوقهم الصراخ والهلع، الجرحى منهم جاءوا لتلقي العلاج وآخرون فرُّوا للاحتماء بمبنى اعتبروه الحصن

الآمن، فيما كان قد عمَّ من هرج وفوضى، دقيقة واحدة كانت فاصلةً بين الهدوء الاعتيادي للمشفى وتحوله سريعًا إلى ملجأ يغص بالجرحى والوجوه الذاهلة والعويل، حكوا عن فظائع يرتكبها جنود الميليشيات في أهالي المخيم، يطرقون أبواب البيوت فإذا فُتح لهم رشُّوا مَن فيها بالرصاص، وفي الشوارع رأوا في أثناء فرارهم نساءً ومُسنِّين يُذبحون كما تُذبَح الفِراخ، كان القتلى يملئون الأزقةَ والزواريب، في كل مكان كان هناك قتيل، لم يُستثنَ من ذلك الأطفال والعجائز، حكى الذاهلون بأسى أن القادة السياسيين وعدوا ببسط الحماية على اللاجئين ما إذا أنهت منظمة التحرير الفلسطينية وجودها في لبنان، رحلت المنظمة ورحلَ معها كثيرون من أهالي المخيَّم ورجالهم، وبقي العُزَّل مطمئنين إلى عدم المساس بهم ما دام قد غادر حاملو السلاح، لكنهم يُبادون الآن ويُذبحون في البيوت وعلى رءوس الطرقات. إحدى النساء قالت من بين شهقاتها المُروَّعة: «أطلقوا على عنق أبي المُسنّ وقالوا له هذا انتقام بشير الجميّل، اخترقت الرصاصة حلقه وخرخر مثل خروف مذبوح، قلت لهم أنا لم أقتل بشير الجميّل لكنهم لم يستمعوا لي، أطلقوا عليَّ فسقطُّ لكنني أدركت أنها رصاصة غير قاتلة، يا ربي يا حقّ ماذا فعلت أنا؟ ما تركوني إلا لمَّا سوّيت حالي ميتة، لم يكن يخطر لي إلا أنه يجب أن أبقى حية حتى أخبر

إخوتي أنهم قتلوا أبانا، ولم أنتبه إلا عندما استقررت في العربة التي هرَّبتنا إلى هنا إلى أن ما فعلته كان غباءً، كان يجب ألا أتظاهر بالموت، كان يجب أن أتركهم يُجهزون عليَّ، إذا ظل أخواي حيَّين فإنهما ليسا بحاجة لي لأخبرهما بموت أبي، سيعرفان هذا من نشرات الأخبار ومن الناجين إذا كان هناك ناجون، وإذا قُتلا فسأكون الوحيدة الباقية من أهلي، حينها كيف يمكنني أن أعيش مع هذه المصيبة؟»، كانت مصابةً برصاصةٍ في الكَتِف، وكانت تحكي ثم تغيب عن الوعي ثم تفيق فتعود للحكي حتى يُغمى عليها من جديد.

نُدبة أخرى في ذاكرة إسماعيل من ذلك اليوم كانت نُزهة، طفلة في الخامسة تقريبا، جيء بها إلى المشفى بشظية في جنبها الأيمن كانت سطحيةً لحسن الحظ، ظلَّت عيناها مُحدِّقتين على اتساعهما وتنظران في الفراغ، لم تكن تستجيب لكلمات إسماعيل الذي شرع في استخراج الشظية منها، ولم يبدُ عليها أي شعور بالألم، لم تنم طوال المدة التي راقبها فيها، أو لعلها نامت بعينين مفتوحتين تائهتين! كان يسأل نفسه عما رأته هذه الطفلة لتتَّسع حدقتاها إلى هذا الحد وتبقيا كذلك طوال ساعات، لم تكن تصرخ أو تبكي، استخرج منها الشظية وضمَّدها ثم تركها في عهدة الممرضة، وعندما عاد في الصباح التالي لتفقُّد جرحها كلَّمته فجأة، قالت له: «فتحوا بطن ماما يا عمو، سألوني أنتِ بتعرفي مين

جوا؟ قلت لهم إيه أخي، قالوا لي شو رأيك تشوفيه؟ قلت لهم ماشي، شقوا بطن ماما وطلعوا أخي، ذبحوه مثل الفرخة وحطوه على بطنها، قلّبته كتير ما بكى، ناديت ماما ما ردت، عطوني هون تعويرة ومشوا».

بكى إسماعيل كثيرًا لكن الطفلةَ لم تبكِ، حكت كل شيء بثبات ثم سكتت، وجهها ثابتٌ بالنظرة نفسها، أدرك أن مركز الإحساس بالألم في دماغها مشغول بهَوْلٍ أكبر!

ظلَّ المشفى يستقبل الفارّين والجرحى الذين كان يعالجهم، وإن بإمكانات هزيلة في مواجهة مذبحة، حتى فجر الجمعة، يومها انتبهوا جميعًا على تعليمات في مكبرات الصوت، كان الكلام موجَّهًا لهم يأمرهم بإخلاء المشفى وبعودة كل حيٍّ إلى بيته، سادت بينهم حالة من الحيرة لأربع ساعات حتى عقد مدير المشفى اجتماعًا في التاسعة صباحًا لمباحثة الوضع والخروج بقرار، كان اللاجئون قد غادروا المشفى على مدار الساعات الماضية منذ الأمر بالإخلاء، ومن الخارج كانت تصِلُ لهم أصوات القذائف وإطلاق الرصاص، استبعد معظمهم أن ينالهم سوء في المشفى، وعلى الرغم من مناداة بعضهم بالمغادرة، إلا إن القرار الأخير كان البقاء من أجل المرضَى وجرحى المذبحة ذوي الحالات الحرِجَة الذين لم يستطيعوا المغادرة، ثم استجد سبب آخر يدعوهم للبقاء،

وهو مقتل غُرابي في محطة وقود مجاورة للمشفى، كان قد خرج إليها عندما سمع بإصابة رجلين هناك فذهب ليحملهم للمشفى من أجل مداواتهم، لكن الميليشيات أطلقت عليه، عندما ذهبتْ آن وإحدى العاملات في مطبخ المشفى لإحضار جثمانه وجدتاه مصابًا برصاصة جهة الكبد وأخرى في صدغه الأيمن، حملتاه إلى المشفى حيث كفَّنه المدير بمساعدة إسماعيل، بينما تولَّت عاملة المطبخ مهمة إخبار زوجته التي كانت في نوْبة تمريض.

في الحادية عشرة صباحًا، اقتحمت الميليشيات المبنى، كانوا متوترين وحركاتهم حذِرَة ومحسوبة؛ إذ يعتقدون بوجود مُقاوِمين في المبنى، أوقفوا جميع أفراد الطاقم الطبي ومعاونيهم في صف وبدءوا استجوابهم، بعد الاستجواب القصير كانوا يوقفون الفلسطينيين والعرب في جانب والجنسيات الأخرى في جانب مقابل، كانت آن تسبق إسماعيل في الصف، وخلفه كان عبد الرحيم ومنصور، عندما حان دورها كانت على علم بأن السفارة النرويجية أرسلت سيارة لأخذها وهي على وشك الوصول ولهذا كانت مطمئنة، لكنها هجست بأن شيئًا سيئًا سيحدث لزملائها الفلسطينيين والعرب، فأجابت عن سؤال الجندي عن هويتها بإنجليزية غير مرتبكة: «أنا الطبيبة آن سوندي من النرويج وهؤلاء أصدقائي أدريان وبيتر ووالتر –وأشارت إلى إسماعيل وعبد

الرحيم ومنصور على التوالي- كنا ننتظر سيارة السفارة النرويجية التي ستصل بعد قليل لنغادر المشفى.».

نظر إليها الجندي ثم إلى الرجال الثلاثة الذين لم يعرفوا ما عليهم فعله وقد باغتتهم آن دون اتفاق مسبق بينهم، فتَّشهم جنديان آخران واحدًا تلو الآخر، انتهى أولًا من تفتيش آن وأشار لها نحو المخرج الجانبي الذي يُفضي إلى الجهة الغربية للمشفى، ثم فعل الآخر المثل مع إسماعيل وعبد الرحيم، وفي حين كان الأول يفتِّش منصور تقدم نحوه جريحٌ يجرُّ قدمًا تنزف من آخر الصالة ويبدو أنه تعرف إليه، وفور أن تأكد منه صاح بانفعال: «دكتور منصور، لقد قتلوا أباك وأمك، رأيتهما بأم عيني مثقوبين بالرصاص ومُكوَّمَين أمام بيتكم!»

فور أن سمع الجندي الذي كان على وشك تفتيشه صَيْحة الرجل تراجع للخلف وأشهر بندقيته، بينما اكتست ملامِح منصور بمزيج من الذُّهول والغضب والصَّدمة، عقدت المفاجأة لسانه فلم يستطع أن ينبس، وحينما أمر كبير الجنود آن ومن معها بالعودة خَطَا منصور نحوه خطوتين ولم يكن واضحا ما كان ينوي فعله، لم يُمهله الجنديُّ الذي كان مُصوِّبًا بندقيته نحوه فأطلق على رأسه فأرداه في الحال، هوى إسماعيل على ركبتيه وراح يبكي وهو ممسك

رأسه بيديه، حاول عبد الرحيم أن يُوقفه على قدميه، بينما تماسكت آن واتجهت إلى كبير الجنود وخاطبته بلهجة لائمةٍ وغير عنيفة في الوقت نفسه:

- «لقد قتلت صديقي والتر وستكون مسئولًا أنت وأصحابك عن هذا أمام سفارة النرويج»

- «لقد ناداه الفلسطيني بمنصور»

- «هذا صديقي والتر، كيف تأخذون بكلام رجل جريح في حالة صدمة وتقتلون صديقي؟»

وعندما رأت أنه ما زال يشكُّ في صدق كلامها قالت له:

- «اسمح لي بجلب حقيبتي وحقائب أصدقائي من الأعلى حتى أريك جوازات سفرنا وأُثبت لك صحة ما نقول!»

وفي الحقيقة لم يقل أحدٌ سواها أي شيء. وافق الجندي وأرفق معها آخرَ حتى الطابق الثالث، عادت بعد عشر دقائق بحقيبة واحدة أخرجت منها جواز سفرها وفتحته ورفعته أمام وجهه ثم صاحت في إسماعيل وعبد الرحيم:

- «صديقيَّ؛ أين وضعتما حقيبتيكما؟ الحجرة بالأعلى غارقة في الفوضى ولا شيء هناك!»

نظر إليها عبد الرحيم وقال بإنجليزية متلعثمة: «لا أعرف،

كانت هناك في المكان المعتاد!»

صوب الرجل نظرة إلى الجنديّ الذي رافقها فأومأ الأخير برأسه علامة التصديق على ما تقول، ارتبك الجنود الثلاثة وسَرَت بينهم همهمة، قال لها كبيرهم وهو يشير إلى المخرج: «اذهبوا»، بينما قال آخر: «انتظروا»، قالت لهما: «أمرُ مَن عليَّ أن أُطيع؟ إذا أطعتُ أحدكما سأقع في مشكلة مع الآخر، هل يمكنكما التنسيق فيما بينكما لأعرف ما عليَّ فعله؟»

وجَّه كبيرهما نظرة ناريَّة للأصغر وقال لها: «اخرجوا»، اصطحبت إسماعيل بمعاونة عبد الرحيم وخرجوا من المبنى، وهناك انتظروا ساعةً كاملة حتى وصلت سيارة السفارة، شاهدوا خلالها جنود الميليشيات وهم يُكدِّسون الفلسطينيين الذين رصدوهم قبل قليل بالداخل في شاحنة زرقاء كبيرة عليها شارة الميليشيا، فتأكد هاجسهم بأنهم لن ينجوا من مصير أهالي المخيم أو مصير لا يقل عنه سوءًا في أحسن تقدير.

عندما وصلت سيارة السفارة النرويجية نزل منها السكرتير الأول واتجه نحو آن وصاحبيها برفقة أحد الجنود، تبادل معه حديثا قصيرًا انتهى بالسماح لهم بالمغادرة، سألت آن الجندي عما إذا كان باستطاعتهم أن يصطحبوا الأطفال معهم فوافق دون تردد، دخلت آن المشفى بصحبة عبد

الرحيم وأحضروا أربعة أطفال بالإضافة إلى حقيبة سفر إسماعيل التي استطاعا إخراجها بالتحجج بما عبَّئا فيها من محاليل وأدوية قالَا للجنود إنها ستلزم الأطفال الجرحى في الطريق حتى العاصمة، عندما خرجَا قالَا للسكرتير الأول ولإسماعيل إن هناك طفلًا خامسًا كان في الغرفة نفسها ولكن حالته كانت حرجة ويحتاج نقله إلى سيارة إسعاف، عندها سأل الجندي في تناقُض هزْلِي سكرتير السفارة إذا كانوا يمتلكون سيارة كبيرة لنقل بقية الأطفال فنفى السكرتير، وسأله بدوره إن كان لديهم سيارة لنقلهم فحرَّك رأسه نافيًا، فاتفقوا على إمكان العودة لأخذ من بقيَ منهم.

عندما تحرَّكت السيارة وبدأ إسماعيل يستعيد شيئًا من وعيه بما حوله انتبه للطفلة التي كانت آن تحملها على رجليها، كانت نُزهة، تردد في أذنيه صوتها وهي تقول له قبل يومين: «فتحوا بطن ماما يا عمو..»، عرفها من لون سترتها وشعرها المعقوص بربطةٍ زهريّة، لم يكن يرَى وجهها في تلك اللحظة، لكن في ذاكرته كانت تطفو نظرتها الذاهلة بحدقتيها المتسعتين.

لم ينسَ إسماعيل بعد مرور ثمانية وعشرين عامًا ما رآه من خلف زجاج السيارة في طريق الخروج ذلك الصباح الأسود من سبتمبر ٨٢، كانت الجثث مُكوَّمةً في الطرقات

والأزقَّة وحاويات النِّفايات، جثث مذبوحة وأخرى مغربلة بالرصاص، معظمها مُقطَّع الأوصال حتى كان من الصَّعب أن تتعثَّر العين في جثمان كامل. لسنوات لاحقة ظلَّت الكوابيس تراود إسماعيل عارضةً مشاهدَ من المذبحة، أحيانًا كان يرى نفسه يُقتَل مع عبد الرحيم بعد الإطلاق على منصور، في أحيان أخرى كانت تطارده أصوات اللاجئين الذين شاهدهم في شرائط آن قبل المذبحة، كان يسمعها متداخلةً وصاخبةً على الرغم من أن الكلام الذي كانوا يقولونه كان عاديًّا غير حادس بما سيجري بعد، وفي مرَّاتٍ أخرى كان يرى نفسه في مشفى عكَّا يُمسك ممسحة ويدفع الدم السائل بارتفاع سنتيمترات على البلاط البارد إلى فتحات عند الجدران، وكلما أوشك على الانتهاء تدفَّق الدم من جديد من حيث لا يدْرِي، ومرةً رأى جسد عُرابي المُمَدد في كفنه في إحدى غرف المشفى يقوم من رقدته ويطلب منه أن يذهب إلى محطة الوقود لإحضار الجريحين.

قضى مع عبد الرحيم أسبوعين في أحد مشافي بيروت عادا بعدهما إلى مصر، استقبلهما الأهل بكثير من البكاء والعِناق وعدم التصديق، كانوا قد تابعوا كل شيء على محطات المِذياع ورأوا على شاشات التلفاز ما ملأهم رعبًا وحزنا. كان إسماعيل ذاهلًا لا يستطيع الرد على أسئلة الأقارب والزوار المهنئين بالسلامة والعودة، اعتقدوا جميعًا

بأن ما رآه هناك قد أذهب عقلَه، لم تكن حال عبد الرحيم بين أهله مختلفة عما كان لدى صديقه، كأنه كان قد أجَّل الانهيار حتى يخرج من تلك المأساة بكل مَن يستطيع أن يأخذه في يده وهو خارج، فلما انتهى كل شيء بدأ يبكي كل الدموع التي حبسها هناك.

بعد أيام سأل إسماعيل عن الحقيبة التي عاد بها، عندما أخبرته مريم بأنها في الغرفة الفارغة، اتجه إليها، سحب الحقيبة على ظهرها وفتحها وجلس على الأرض، كانت أمه وأخته نورة وزوجته وعياله يقفون جميعًا بالباب يراقبونه بوَجَل، بدأ تناولَ ما في داخلها شيئًا تلو الآخر، أول ما خرج في يده كان فردَ حذاءٍ لطفل لم يتجاوز عامين، كان قد حاول إسعافه من رصاصة في صدره وفشل، تهاوى على الأرض إلى جانب السرير وراح ينتحب بصوت مكتوم، وحين استدعاه صوت الممرضة لإسعاف جريح آخر لمح فرد الحذاء على الأرض وقد سقط من قدم الطفل، فتناوله ونهض واضعًا إياه في جيبه. قرَّب الحذاء إلى أنفه، كان يشمُّه ويبكي، قبَّله ثم وضعه إلى جانبه وتناول منديلًا مطويًّا، فتحه فكشف عن مفتاح يكسوه الصدأ وقِطَعٌ صغيرة من الدم المتجلط، أعطاه إياه مُسِنٌّ فلسطيني وهو يلفظ آخر أنفاسه بين يديه، قال له وهو يضع المنديل المفتوح في يده:

- «اسمي حمدون أبو شقة، هذه وصيتي يا بني، سيجيء ابني ليسأل عني، قل له ذهب إلى ربه وأوصاك بأخواتك وأعطِه هذا، إياك أن تضيِّعه، هذا مفتاح بيتنا في حَيْفا».

لكنَّ الابن لم يأتِ وظلَّ المِفتاح معه، قبَّله كثيرًا وسقاه بدمعه ثم وضعه جانبًا وتناول الغرض الذي بعده. حزينًا كان يربض هناك مثل حيوان بدَا له أنه سيظل يلفظ أنفاسه الأخيرة إلى الأبد، كان القميص الملطخ بالدم والتراب، الذي خلعه عن عُرابي لتفقُّد مواضع إصاباته قبل تكفينه، يُعذِّب ذاكرته باستعادة الوجه المشطوف بالشظية، وتحته كانت هناك مباضع ومقصَّات استخدمها في إسعاف الجرحى، منهم من مات أمام عينيه ومنهم من فرَّ من المشفى صبيحة تلك الجمعة ولا يعرف الآن أيَّ مصير لقوا.

عندما طال بكاؤه خشيت عليه النسوة الثلاث اللائي يَتَمَتْرَسْنَ خلفه بأعين مُشْفِقَة ودمعٍ لا يتوقف، وبينما كان الصِّغار يتطلعون إليه بتوجُّس غير فاهمين ما يجري، تقدَّمت نحوه النسوة فرفعته أمه وزوجته من ذراعيه رغمًا عنه وهما تذكرانه بالله وتحاولان تهدئته، في حين راحت نورة تلتقط ما وضعه على الأرض وتعيده إلى الحقيبة برفق ثم أغلقتها وأوقفتها إلى جانب الجدار. لقد فتحها إسماعيل مراتٍ كثيرة بعد ذلك اليوم وتحسَّس كل ما فيها، وبعد كل مرةٍ كان

يُعيدها إلى المكان نفسه بجوار الحائط، وعلى الرغم من تكدُّس الأغراض في الغرفة على مدار سنوات طويلة لم يجرؤ أحد على زحزحة الحقيبة من موضعها، كانت الأشياء تتكاثر من حولها وهي ثابتة لا تتزحزح عن مكانها قيد أُنْمُلَة.

***

الحقيبة الأخُرى كانت تعود إلى مريم، بالتحديد كانت الحقيبةَ التي أتت فيها ثياب عُرْسِها إلى هذا البيت، عندما أحضرت أختَاها الكُبريان ملابسها ظهيرة يوم العُرس، ووقعت عيناه على الحقيبة، غُصَّ قلبه بحسرةٍ جاهد كثيرًا حتى لا يشف عنها وجهه، قامتَا يومها بترتيب ملابسها في خِزانة غرفة النوم ثم انصرفَتَا، ولم يدفعه فضوله في أي وقت للفُرجة على تلك الملابس، لا قبل قدومها إلى البيت ولا بعده. عندما وُضعت الحقيبة في هذه الغرفة بعد قيام الأختين بتفريغها في الخِزانة لم يكن فيها شيء، وفقط بعد أن حُمل مشلولا إلى هذا السرير راحت مريم تُفرِّغ الخِزانة من قمصانها الداخلية الملونة شيئًا فشيئًا، تلك القمصان التي كانت تستكثر منها مُحاولةً بيأس أن تجتذبه رآها فيما بعد تدخل بها أكوامًا بعد أخرى، تضعها في الفراغ الضئيل في منتصف الغرفة، وأمام عينيه تشرع في طيِّها ورصِّها في تلك الحقيبة، تنتهي من مهمتها وتخرج بملامح جامدة، فعلت ذلك

ثلاث مرَّات بفوارِق زمنيَّة لا تتعدى أسابيع، حتى توقفت تمامًا فعرف أنها قد وضعت كل القمصان في الحقيبة، انعكاسٌ آخر لتعطيله كرجل في حياة زوجة لم يكن راغبًا فيها في أي وقتٍ مضى، وعلى الرغم من ذلك يخجل من طيِّها قمصان نومها أمامه لتُسلمَها للبِلى والعثَّة.

***

منضدة خشبيةٌ كبيرة مُعلَّقٌ فوقها لوحة..

كانت يومًا ما في غرفة مكتبه، عندما جرَّتها مريم بمساعدة ابنتهما إلى هذه الغرفة واجهتا صعوبة بالغة في إدخالها من الباب الضيِّق، كان هذا بعد خمس سنوات من إصابته بالشلل وثلاث سنوات من نقله للغرفة، ظلَّت المرأة وابنتها تزحزحان المنضدة يمينًا ويسارًا، ترفعانها ثم تضعانها وتبدآن الجرَّ، حتى سمع صوت شرخٍ علم بعد أن استقرت في مكانها أنه لحق بإحدى أرجلها الأربعة، منضدة مستطيلة بلون العسل كانت شاهِدَةً على الليالي التي سهرها يُذاكر أو يسلي نفسه بمتعته الوحيدة؛ قراءة الكتب، تمَّ نفيها إلى غرفة الأغراض القديمة أيضًا مثله ومثل كل شيء يتعلق به. عندما ثبَّتتها مريم بمساعدة رقيَّة في مكانها لصقَ الحائط صرفت ابنتها وقالت له:

- «الولد الآخر سيبدأ الدراسة في الجامعة ويحتاج غرفة

تخصه وحده، وعوضًا عن هذا لم يعد من اللائق أن ينام معي ومع أخته في غرفة واحدة، وتعرف أنه ليس على وفاق مع أخيه الأكبر ليتشاركا الغرفة نفسها.».

ثم خرجت دون أن تُخبره شيئًا آخر؛ لأيَّة كليةٍ قدَّم ابنهما الثاني أوراقه على سبيل المثال.

على الحائط خلف المنضدة هناك لوحةٌ بطول خمسين سنتيمترًا وعرض خمسين، فيها امرأةٌ تناهز الثلاثين من العمر ترتدي فستانًا رماديًّا وتجلس على كرسيٍّ مُريح مُسندةً ذقنها على يدها ومفكرة -على ما يبدو- في ورق تُمسكه بيدها الأخرى، تجلس المرأة جلسةً مستريحة فتسلبه ملامحها المسترخية أي شعور بالراحة فور أن تقع عيناه عليها.

لا يدري إسماعيل مَن جاء بهذه اللوحة الغريبة إلى هنا ولا كيف لم ينتبه لها وقتَ وُضعت، ومن المُستبعد، بل يبدو له مستحيلًا، أن تكون زوجته أو أحد أبنائه قد علَّقها هنا من أجل أن يُسلِّي عيني المريض المشلول، كما أنها لم تبدُ له لوحةً مسليةً بأي حال من الأحوال.

لا يعرف عنها سوى أنه استيقظ صباح أمس فرآها في هذا المكان كأنها كانت هناك منذ وقت طويل، لم يحبذها حين وقعت عيناه عليها أول وهلة، وشيئًا فشيئًا خلال اليوم كانت

تنمو في قلبه ضغينة تجاه المرأة الجالسة هناك، لسبب يجهله حرص في كل مرة ينظر إليها أن يكره فيها شيئًا مختلفًا، كان قد كره حتى ذلك الوقت أنفها الصغير ونظرتها التي تثبِّتها على نقطة ما أمامها والطريقة التي تمسك بها الورق لأنها تذكره بعجزه منذ سنين عن إمساك ورقة.

بدءًا بما بعد المنضدة حتى نهاية الحائط المواجِه له لا يستطيع إسماعيل أن يتعرَّف إلى الأغراض التي وُضعت هناك؛ إذ تم وضعها أسفل مستوى نظره بحيث لا يرى منها ولا حتى أطرافها.

***

تقويم ميلادي وساعة حائط..

إلى يسار اللَّوحة وفي مُقابل وجهِهِ تمامًا، وهما أيسر شيئين يمكن له رؤيتهما في الغرفة بدون أن يحتاج لطرف بؤبئه يمينًا أو يسارًا. إذا استطاع إسماعيل أن يُحلِّل نفسيتَه بشيء من عدم إغفال التفاصيل الصغيرة التي قد توجِّه أفكار الإنسان وأفعاله دون أن يُحس، فإن بوسعه الزَّعم أن هذا التقويم وتلك الساعة من أسباب قراره الصلب والرهيب بإنهاء حياته.

منذ نُقل إلى هذه الغرفة وحتى أول الشهر الجاري لم يكن

لديه سبيل ليعرف مرور الوقت، لثمانية عشر عامًا عاش في بقعة زمنية معتمة يجهل فيها تاريخ اليوم والسنة، كان الزمن يسيل بلا فواصل، وبعض الأيام كانت تمضي دون أن يعرف أنها مضت، إما لأنه تعب تعبًا ما فنام في النهار واستيقظ فلمح النهار في النافذة دون أن يدري كم نامَ، وإما لأنه استغرق طويلًا في الغوص داخل رأسه فنسيَ كم ليلًا مرَّ من النافذة. أكان هذا سيئًا أم جيِّدًا، لم يكن بوسعه الجزم قبل وضع التقويم والساعة في غرفته، أحيانًا كان يُحسُّ كما لو أن الوقت ينهال عليه، هو إسماعيل المحبوس في جسده والذي لا يستطيع الحراك في السرير، حتى يغطيه تمامًا ويدفنه حيًّا، فيشعر أنه دودةٌ مطمورةٌ في طين لزِج وثقيل، لكنه في أحيانٍ أخرى وجد نفسه معزولًا عن الزمن، وفكر أن العالم يتغيَّر خارج هذه الغرفة بينما ما يزال هو يحتفظ بنفسه كما لو أنه مُحنَّط، وكم ملأته هذه الفكرة بانتشاء يصعب وصفه؛ إذ خُيِّل إليه أنه إذا ما قُدِّر له أن يُشفى من شلله فسيستطيع استئناف حياته من النقطة التي توقف عندها، وهذا لأنه –وللغرابة- لم يكن في الغالب يشعر بمرور السنوات وإن كان يُضجره تراكم الوقت وسيلانه دون توقف، ولأنه لم يكن له أدنى قدر من الاطلاع على تغير العالم، كانت غرفته كلَّ العالم، وكانت التغيرات التي تطرأ عليها في أوقات متباعدة أقل كثيرًا من أن يُدرك حجم التغير الكبير

الذي حدث بالخارج منذ عُزِل عن ذلك الخارج. أحيانًا، ويحدث هذا حين يفكر في الأمر بشكل عقلانيٍّ محض، كان الزمن الذي مر عليه وهو في هذه الحال يبدو له سنين طويلة وكثيرة جدًّا، وحينها كان يُدرك أنه شاخ، وهو شيء أدركه أيضًا في المرات القليلة التي دخل عليه فيها أحد أبنائه فرأى كم كبر واستطالت قاماته، والشيء الذي كان يشعر به في أوقاتٍ كهذه هو العجز والتقييد في جسده؛ إذ تسيطر عليه -أكثر من أي شيء آخر- رغبة عارمة في أن يرى الرجل الذي أصبح عليه، ويمنعه عجزه من الاتجاه لأقرب مرآة والنظر فيها. باستثناء ذلك كان مُستريحًا لفكرة سيلان الوقت بلا فواصل ولجهله بالطول الفعلي لما مرَّ عليه من الزمن، لأنه كان يحلم دائمًا ذلك الحلم الساذج باستكمال حياته من حيث توقف في اليوم الذي ينعتق فيه من جسده.

لكن مريم قتلت هذا الحلم بوحشِيَّة لم يستطع أن يغفرها لها، خاصةً مع تفسيره فعلها تفسيرات غير بريئة تنطوي على كثير من الشر والرغبة في الانتقام، فعندما علَّقت في مواجهته التقويم وساعة الحائط ذات البندول فكر في دوافعها كثيرًا ولم يستطع إيجاد شيء آخر، بل وصل من انفعاله عندما فكر في ذلك أنه رآها تقف أمامه بوجه آخر غير الوجه اللامبالي والمغلوب على أمره الذي كان يراها به طوال الوقت، وأنه سمعها تُعنِّفه:

- «لقد سئمت منك! ألا ترى أيها اليائس كم سنة مرت في هذا الجحيم! ماذا الذي تنتظره؟ لماذا تتمسك بالحياة إلى هذا الحد؟ ما الذي تأمل أن يتغير؟ أم إنك حلفتَ أن تُرسلني إلى قبري قبل أن تموت؟ ما الذي فعلته لك؟ لماذا لا تُريد أن تُخلِّصني؟ ألا ترى كم مرضت من خدمتك وأصابني الهُزال؟ وأنت، هل تستحق كل ما فعلته وأفعله من أجلك؟ ما الذي تنتظره؟ أخبرني! يخيل إليَّ أنك مسرور بحالك ولا يُنغِّص هناءَةَ بالك شيء، تقضي أيامك مُستلقيًا في السرير كالباشا وتطعمك وتنظِّف قاذوراتِك مريم؛ الجارية بنت الكلب التي اشتراها لك أبوك، بل إنني متأكدة أنك في داخل نفسك تُخرج لي لسانك؛ لأنك تعرف أني مُجبرة على خدمتك ومسح مؤخرتك كل يوم ومع هذا لا أستطيع أن أنبس أو أقول «مللت». إنك أسوء رجل عرفته في حياتي يا إسماعيل، أنت أسوء حتى من أبيك. يا لبرودك! طبعًا لا يؤثر فيك أيٌّ مما قلت، أنا أتعذب وأنت تستلقي هكذا كالباشا، لكن لا، ليكن ما تبقى لك من حياتك غصصًا في حلقك يا إسماعيل، ولتُقلق نومك عقارب الساعة ورنات البندول، ولترَ يا عاجز كم مرَّت عليك السنون وأنت عاجز! وكم ستمرُّ عليك بعد! لن تكون أيامك منذ الآن بسهولة ما فات أبدًا، إذا كنت تريد تعذيبي فإنني سأفعل الشيء نفسه، وأنتَ البادئ!».

***

كومود صغير بأربعة أدراج..

إلى يمين سريره لصق الحائط، نقلته مريم إلى هنا من غرفة الأولاد لتحفظ فيه أدويته بالقرب منه، ولتضع على سطحه طبق الماء والمنشفة في أثناء تنظيفه الدوريّ كل يوم.

كان يُصنِّف الأشياء في غرفته حسب الحاسةِ التي تدخل من خلالها إلى رأسه لتعلن عن وجودها، هناك أشياء كان يراها وهي كل ما كان يقع في مجال نظره المحدود كرجل مشلول لا يستطيع أن يُديرَ عنقه وينحصر مكانه في السرير أو في الكرسي المتحرك الذي لا يتحرك. وأشياء كان يعرف بوجودها من خلال أذنيه فقط؛ مثل صندوق -لا يعرف أبعاده بالضبط ولا شكله- تضعه زوجته في الفراغ بين سريره والحائط المقابل له وتفتحه مرة كل شهر في الموعد نفسه لتأخذ منه ملاعق فضيةً وأطباقًا من الخَزَف تحتفظ بها هناك للمناسبات الخاصة كالولائم التي تجمع فيها أبناءها وإخوتها بشكل شبه دوريّ. وهناك أشياء يعرف بوجودها من خلال حاسة شمّه فقط، وتلك هي ثلاث جِرارٍ تحت سريره تحفظ زوجته جُبنًا قديمًا مُملَّحًا في اثنتين منها وتحفظ في الثالثة عسلًا أسودَ، تجرُّ الواحدة منها سنتيمترات برفق مُبالغ فيه

حتى إنه لا يكاد يسمع صوت احتكاكها بالأرض، تفتحها مرتين في الأسبوع أو أكثر فتغزو أنفه رائحة الجبن القديم أو العسل.

من الأشياء التي كان أحيانًا يسمعها ولا يراها ذلك الكومود الصغير على يمين سريره، والذي لم يكن يثير اهتمامه حتى بدأت ابنته رُقيَّة استخدامَ دُرجه السفلي الذي لم تكن زوجته تقترب منه لعدم حاجتها إليه. بدأ ذلك قبل عشر سنوات، استمرَّ لأكثر من عامٍ ثم توقف. كانت رقية تدفع الباب في الليل بعد أن تجهِّزه مريم للنوم، تدخل على أطراف قدميها حتى تقف أمامه في مستوى نظره، تُحدِّق فيه لثوانيَ ثم تتجه إلى الكومود وتفتح دُرجه السُّفلي، يعرف أنه السفليُّ وليس سواه لأنها كانت تنحني حتى تُقرفص، تضع هناك ورقة مطويةً وتُغلق الدرج، تستقيم واقفة وتنظر إليه نظرة أقصر من سابقتها، ثم تخرج على عجل دون أن تقول شيئًا. كررت هذا كثيرًا طوال أكثر من عام بفارق أسبوع وأحيانًا أكثر أو أقل بين كل مرةٍ وأخرى، كانت في العشرين من عمرها عندما وضعت أول ورقة في الدرج، أما الورقة الأخيرة فوضعتها قبل زفافها بيوم واحد.

لعشر سنوات ظلَّ يتحرَّق لمعرفة ما تحتويه الأوراق التي كدَّستها ابنته هناك، كانت على مقربة شديدة منه، لُصقَ

سريره، وكان عاجزًا عن أن يمدَّ يده ويلتقطها ليعرف ما فيها، كان يعرف من توقفها أمامه كل يوم وتحديقها إليه أنها في تلك الأوراق رسائل كتبتها له، ما كان يُحيِّرُها هو أنها لم تُقدم ولا مرةً على التحدث إليه أو قراءة رسالة من رسائلها عليه على الرغم من علمها أنه سيسمع، كان يسأل لماذا تضع رسائلها في الدُّرج وهي تعرف أنه لن يستطيع أخذها من هناك وقراءتها، هل تراها كانت تعتقد أنه سيُشفى يومًا ما ويقرؤها؟ ليس يدري، وسيظل هذا الأمر يشغله -على ما يبدو- حتى موته.

***

كرسي إسماعيل المتحرك الساكن..

أمام السرير والكومود، لم يكن له مكان محدد، فكان موضوعًا هناك عشوائيًّا، بحيث تضطر مريم إلى تحريكه سنتيمتراتٍ كلما جاءت لتُنظِّف إسماعيل أو تُعطيَه دواءه، وفي الصباح وأوقات أخرى من اليوم كانت تُقرِّبه من السرير لتنقل جسد زوجها إليه، وفي كل مرةٍ يكون وجهه في مقابل ناحيةٍ مختلفةٍ من الغرفة وإن كان هذا لا يشكل فارقًا كبيرًا، وإن كان لاحظ أنه على الرغم من هذا الاختلاف في كل مرة عن سابقتها إلا أنه ولا مرةً كان وجهه في مُقابل باب الغرفة لأن هذا يعني بطبيعة الحال أن يكون ظهر الكرسي للسرير،

وهو ما يُصعِّب على مريم نقله من السرير للكرسي ويتسبب لها في مشقة لا داعي لها. فقط عندما كانت تأتي أخته كان كُرسيُّه يُدار ليُقابل فتحة الباب، وكانت زيارات أخته على فترات ليست قريبة.

قبل أن يُنقل إلى هذه الغرفة كان الكرسي يحمِله من غرفته إلى الصالة، وأحيانًا كانت تدفعه مريم إلى مكتبه عندما تكون رائقة المزاج، أما منذ نُقل إلى «غرفة المَنور» كما تُطلق عليها زوجته، وتحديدًا منذ وضعت الموقد القديم خلف الباب، لم يعد ممكنًا إخراجه من الغرفة على كرسيه، فتحول الكرسي المتحرك إلى كرسيٍّ ثابت، وقُضي عليه بالحبس في غرفة الأغراض القديمة، وكان يبدو أن أحدًا لا يعير هذا أي اهتمام.

***

عربة أطفال قديمة..

إلى جانب الكومود مُسنَدةً إلى الحائط، عندما يكون إسماعيل في سريره فإنه لا يرى منها سوى طرفها الأبعد إذا أدار حدقتيه إلى أقصى اليمين بجهد بالغ. يذكر جيدًا اليوم الذي اشتراها فيه والمكان الذي اشتراها منه عندما وُلد ابنه الأكبر عمرو، ثمنها كلَّفه نصف راتب شهر واستهلكت نفقات المشفى الذي ولدت فيه زوجته النصف الآخر، ما اضطره للاستدانة من أمه وصديق له حتى يُكمل مصاريف البيت إلى

يوم ثلاثين.

على الرغم من عدم حبه لمريم أو رضاه عن زواجه منها، إلا أنه شعر بدفءٍ في قلبه عندما وضع الطفل في حضنه أول مرة، وتعلم حينها أن الرجل قد يتزوج امرأة لا يحبها، بل ويبغضها، ولكنه يحب عياله منها على الرغم من أنها شاركت فيهم بالنصف وعلى الرغم من أنهم يحملون في تكوينهم شيئًا منها، وهذا شيء غريب لعله من أفعال الأبوة التي تُجري أحكامها الخاصة على عقل الرجل وقلبه.

لقد مشت مريم إلى جانبه مراتٍ كثيرة وهي تدفع أمامها تلك العربة، ومع أنه كان يكره ذلك المشهد بشدة (رجل وامرأة يسيران جنبًا إلى جنب خلف عربة طفل) لما يوحي له وللآخرين من رابطة حميمة ما زال يرفض القَبول بها، ومع أنه كان يشعر بالغلبة على أمره كلما اضطر لاصطحابها مع الطفل إلى مكان ما، كان قلبه يرفرف كل مرة فوق ذلك الصغير في العربة.

***

كُتُبه..

من جوار عربة الطفل إلى نهاية الحائط وامتدادًا على عرض الحائط المجاور حتى الباب. نقلوا إلى هنا كل الكتب

والروايات التي دأب على قراءتها في صباه وشبابه حتى إصابته، وكعادتها في كل مرةٍ تأتي فيها بشيء من أغراضه لتضعه في الغرفة أخبرته مريم أن مصطفى يشتري كتبًا جديدة طوال الوقت ولم يعد هناك مكان لوضعها فيه، ما يستلزم إخلاء أرفف المكتبة من الكتب التي لم يعد لها لزوم، وهكذا تكدَّست في هذه الغرفة أغراض كانوا يكتشفون عدم جدواها من وقت لآخر، كان هو أولها.

لا يتذكر الآن شيئًا آخر، وهذا يعني أنه انتهى -حاليًا على الأقل- من تحييد كل ما يمكن أن يُشتِّته أو يُفقدَه تجرُّدَه في رصد ذنوبه ويجرفه للشعور بالرثاء على نفسه، بوسعه الآن أن يبدأ بنفْسٍ مرتاحة وبتركيز كامل.

سمع صرير مفاصل باب الشُّقة، لقد كان نسي أن مريم ليست في البيت، بعد دقائق دفعت باب غرفته ودخلت مرتديةً ثوبها المنزلي وعلى رأسها الإيشارب الرمادي المعقود للخلف، وعلى الرغم من أنها كانت قد كلَّفت الممرضة بتجهيزه للنوم إلا أنها جاءت تتفقد عملها معه، ولسبب لا يعرفه إسماعيل جسَّت بيدها حفَّاضه من تحت سرواله ثم بدا لها أن تغيِّره، «ألا تحب هذه المرأة الراحة؟»، سأل نفسه، وفكر كم أن الإنسان غريب ومن غير الممكن قياس دوافعه النفسية على المنطق! إنه يعرف أنها تستثقله، ومع ذلك لا

يسعها أن تنام دون فعل الشيء الذي تفعله كل ليلة، تعجَّب الأمر ولكنه استسلم ليديها الرتيبتين والخاليتين من أي شعور، بخِزْي أقل وحنق أقل هذه المرة، لم يشعر في تلك اللحظة بشيء من المهانة في عريه أمام امرأة كفَّ عن أن يكون رجلًا لها قبل عشرين عامًا؛ عندما لم يصبح أكثر من عظمٍ في قُفَّة تتولى تنظيفه مرتين في اليوم حتى لا ينتن وتفوح منه رائحة سيستحيل على الآخرين العيش معها، كم مرةً شعر بضجرها منه وهي تُنظِّفه، بقرفها واشمئزازها منه، وكاد يسمع رغبتها في أن تتخلص من هذا الجسم المعطوب المحسوب عليها زوجًا؟

كم مرةً تمنَّت مريم أن يموت ويُريحها من هذا العذاب؟ كان يسأل نفسه هذا السؤال طوال الوقت، وكان يذبحه، هذه المرة لم يتردد السؤال في نفسه، بل كانت الإجابة هي ما يرقص هناك، أراد بشدة أن يقول لها بطريقة ما:

- «أبشري يا مريم؛ سأموتُ يوم الجمعة!».

اليوم الأول

في الطفولة نتشرَّب صفاتِنا، ثوابتَنا، أخلاقنا، ما نؤمن به، طريقتَنا في المرح وأسلوبَنا في الرَّفض، قرارنا بالتماهي مع الألم أو وضع نقطة والبدء من أول السطر، الأساس الذي تنطلق منه اختياراتنا من متعددات الحياة، وكل ما سيستمرُّ معنا بقيةَ العمر، نتشرَّبُه من آبائنا وبيئتنا وما يُنشئوننا عليه.

بدءًا من أول الشباب نأخذُ في دفع ضريبة هذا كله؛ عن طريق العيش من خلاله.

كالإسفنج؛ نمتصُّ في الطفولةِ كلَّ ما يتمُّ غمسُنا فيه، في مراحل العمر التالية تعتصرُنا الحياة لتستخرج منا العُصارة، وعندما نموت نكونُ قد جففْنا تمامًا.

(١)

لو سأله أحدٌ كيف أخذتْ حياتُه شكل هذا المُنحدر واتخذ شكل كرةٍ تتهاوى لقال: بدأ كلُّ شيءٍ بأن ركلَني أبي. يعتقد إسماعيل أن الآباء نوعان: نوعٌ طيِّب وآخر شرير. هكذا بتقسيم طفوليٍّ محضٍ لم يتخلص منه حتى وهو على وشك بلوغ الثالثة والستين من عمره.

كان أبوه من النوع الثاني، النوع الشرير، وفي قصصٍ أخرى ربما يحكي بعضٌ عن لفتات آبائهم الطيِّبة وحتى غرائبهم الحنونة معهم في أوقات أو مواقف بعينها يخالفون فيها عادتهم، لكن هنا، في قصة إسماعيل الحزينة، كان الأب من الطراز الثابت على وتيرة واحدة أبدا، لا يغير طارئ من طبعه ولا تخفف مصيبة تقع للطفل من حدته، كان إسماعيل يراه شريرًا على الدوام، ولقد بدأ يفهم هذه الحقيقة في أواخر طفولته، تلك الفترة التي يكفُّ فيها الإنسان عن الاستماتة في انتحال الأعذار وتلفيق الحجج لأبيه، والتي يقبل فيها أخيرًا بعيوب الأب وأنه لم يكن الأفضل في العالم، حينئذٍ تتلاشى كل الأسباب التي تدفعنا لتقديس آبائنا، وكما لو كنا نفيق من حلم خِلناه حقيقة لسنين؛ يتبين لنا أننا قادرون على عدم الاتفاق معهم دون أن تحل بنا لعنة وأيضًا –للغرابة- دون أن نشعر بالخزي أو بعذاب الضمير، نثور لهذا في سنين

يسميها بعضنا مراهقةً؛ لغضبِنا من الشعور بالخديعة، من أننا قضينا سنين طويلة نعتقد بفرادة شخص عادي ودفعنا هذا الشعور بالفرادة –مع أخذ المحبة في الاعتبار- إلى تنزيهه عن الخطأ، وبالتالي إلى ابتلاع الضرب والإهانة في صمت.

لكنه بالرغم من إدراكه حقيقة الأمر في سنين مبكرة من نضوجه لم يُفد من ذلك شيئًا، لم يتجنب السقوط من الحواف التي دفعه نحوها كونُه ابنَ أبيه؛ بكل ما تعني هذه الكلمة من شبه خفيٍّ بينهما يعرفه في قرارة نفسه، ومن وقوع تحت سطوة غاشمة أفسدت عليه كثيرًا من حياته، لقد ظلَّ طوال الوقت تحت رحمة ذلك الإنسان المستبد، ترك نفسه –عن ضعف أو عن جبن- رهنًا لطبيعة أبيه المُحبَّة لرؤية أمارات الطاعة على الوجوه، لمِزاجه الصعب ولأهوائه الخاصة، لأفكاره المفروضة بالقوة ولأخطائه -التي لا يعترف بها أحد- في تقدير الأمور. لقد سمحَ لأبيه بأن يضع بصْمتَه على كل خيار كان على إسماعيل أن يختاره بإرادته الحُرَّة، لا، ليس مجرد بصْمة، في واقع الأمر لقد اختار أبوه كل شيء نيابة عنه، وتصرَّف في حياته كما لو كانت شيئًا يعود له؛ بالضبط كعلبة السجائر التي يعتز بها أو القدَّاحة.

***

وُلد إسماعيل في أول سنة النَّكبة، أي قبل حركة يوليو ٥٢

بحوالي خمس سنوات، حكت له عمته أن أمه لم تكن تريدُ إنجابه، وأنها حاولت إجهاضه لأنها رأته بمثابة قفلٍ ثانٍ في قيد زواجٍ تجهدُ للتخلص منه، بل إن تركه ينمو وينزلق إلى الدنيا سيؤبِّدُ حياتها الزوجية التعيسة حتى الموت، لأن النساء في مجتمعٍ كالذي عاشت فيه، النساء التقليديات والحزينات جدًّا، كنَّ يحتفظن بنصف الأمل في الطلاق بعد إنجاب أنثى، أما عندما ينجبن ذكرًا فإن الأمل يتفتت ويضيع، ولذلك حاولت أمه، تعاطت كل وصفات الجارات اللواتي كنَّ يسمعن صراخها المكتوم أو يرين ازرقاق الكدمات في وجهها، مدَّت بنفسها ملعقةً في رحمها حتى رأت الدم، وقفزت من فوق سريرها العالي مئات المرات، دون أن يُسفر أيٌّ من ذلك عن خلاصها المأمول من تلك البَذرة العنيدة، وحتى عندما رقدت في الفراش وعرف الزوج بحملها وبمحاولتها التخلص منه وأوسعها ضربًا لم يسقط الحمل أيضًا!

وكما لو كانت تعتذر، كانت أمه تقول له:

- «ولكنك نوَّرتَ حياتي يا إسماعيل، أدركت بعد سنين كثيرة من خبط رأسي في الحائط لأصعُبَ على أبي أنني لن أستطيع الطلاق وأن أحدًا لن يسمح لي..».

قالت ذلك بهمس وبخجل وهي خافضةٌ عينيها، ثم

استطردت:

- «وعندئذٍ نظرتُ في وجهك الجميل وحمدتُ ربَّنا الذي حفظك لي ولم يستجب لدعائي الأهوَجِ ولا لمحاولاتي المحرَّمة، سامحني يا بني.».

كانت تعَلِّق عينيها على شفتيه برجاء تنتظر الغفران الذي لم ينطق به، ما رسَّخ شعورها بأنه لن يغفر لها، بينما لم يكن سكوت إسماعيل إلا لأنه لم يجد ما يقوله، ولأنه كان دائمًا ما يتحاشى الولوغ في أي تفصيلٍ للعَلاقة بين أبيه وأمه لأن هذا كان يجرحه، ولذلك كان يفضِّلُ التعامي عن حزنها الرَّابض وألمِها المكتوم، كان دائمًا وأبدًا يرتبك أمام مآسي الآخرين الخاصة ولا يستطيع إبداء التعاطف، وعلى العكس تمامًا مما كانت تستغفره لأجله، لم يكن يشعر في قلبه بأيَّة غضاضة في كونه لم يكن جنينًا مرغوبًا فيه، كان يعتقد أنه لا يمتلك الحق في أن يحاسب أمه على سعيها للتخلص منه في حين لم يكن أكثر من مجرد بويضةٍ ملقّحة لأم مقهورة ورجل سيء، أضف إلى ذلك أنه عندما دلفَ إلى هذه الحياةِ لم يجدْها رائعةً إلى الحدِّ الذي تستحق معه أن يتخذ موقفًا من محاولة أمه أن تحرمَه منها.

ولأنه أبرم اتفاقا مع نفسه، يقول إسماعيل، ويعرف أنه يقول بصدق: ليس بوسعي أن أحاسب أحدًا، يمكنني فقط أن

أحاسب نفسي، وحتى إذا أُسيء إليَّ بشكل ما، فإن ما يتحتم عليَّ هو التخلص من الإساءة لا مُحاسبة المسيء، لستُ حكمًا ولا مُنفِّذَ حُكْمٍ، أنا إنسان سيُحاسب في نهاية المطاف كما جميع الناس.

هل بوسعي، يا إلهي الذي لا يُضيِّع فُتات حسنة في قلب عبده، أن أعتبر هذه النقطة من حسناتي القليلة؟ أنني على الرغم من مساوئي الجَمَّة لم أشعر بالرغبة في محاسبة الآخرين؟ سأسعد إذا ثمَّنت ذلك في قلبي عندما أقف وقفة الحساب الرهيبة.

المرأة في اللوحة

- «بسسسسسس.. إسماعيل! إسماعيل! بسسسسسس»

كان الصوت يُناديه من مكان يجهله، صوت أنثويٌّ حادٌّ ورفيع، حاول أن يعرف من أين يجيء، وذكَّره ذلك بحكايات جدَّته التي كانت تُخيفه عن الندَّاهة؛ تلك الجنيَّة التي كانت تسكن البحر وتخرج رأسها منه بعد منتصف الليل فتنادي أي رجل تراه يمرُّ وحده، فإذا ما استجاب لها بدافع من سذاجته أو قلة درايته فإنها كانت تسحبه معها إلى عالمها، ولا يعثر أحد على أثرٍ له أبدًا بعد ذلك. ارتجف عندما تذكر تلك الحكايات، جاهد نفسه كثيرًا حتى يتجاهل ذلك الصوت لكنه كان مُلِحًّا ولم يبدُ له أن صاحبته تنوي الاستسلام، فظل يفكر

من أين يأتيه ويدور بعينيه في مدى رؤيته..

- «بسسسسسس، إسماعيل، أنا هنا، انظر إلى اللوحة!»

نظر إسماعيل إلى اللوحة وفزع عندما رآها ثابتةً والمرأة فيها تُلوِّحُ كأنها جانٌّ، استعاذ بالله في قلبه، أطبق جفنيه غير أن صوتها لم يتركه وشأنه!

- «إسماعيل! لا تُغمِض عينيك، هذا لن يُفيدك، هيَّا افتحهما، افتحهما بسرعة، هيا!»

ظل مُطبقًا جفنيه كأن في فتحهما موتَه، صحيح أنه قرر أن يموت لكنه لا يريد لهذا أن يحدث قبل الموعد الذي قرَّره ولا أن يحصل بهذه الطريقة!

- «قلتُ افتح عينيك! افتحهما وإلا سأفعل ما لن يسرَّك أبدًا!»

تلك الوقِحةُ تُهدده، لكنه لن يخاف من لوحة على الحائط بالتأكيد، إنه مشلول ولكن عقله ما زال صحيحًا.

- «هكذا إذن! حسنًا، سأريك ماذا سأفعل بك!»

قالت ثم –وبطريقة تشبه السحر- انفتح شباكُ الغرفة الذي كان مُغلقًا، فتناهى إليه صراخ زوجة جاره تحت وقع عصًا، ثارت أعصابه مع كل صرخة وأحس بدمه فائرًا في عروقه،

تدافعت في ذاكرته مشاهد قديمة لم يكن يحب تذكرها، بدأت أنفاسه تتسارع وشعر بقلبه يرتجف!

- «ما رأيك الآن؟ أستفتح عينيك وتنظر إليّ أم أنك راغب في سماع مزيدٍ؟»

فتح إسماعيل عينيه مقهورًا على أمره، لم يكن يعرف كيف استطاعت امرأة ليست أكثر من رسمة على لوحةٍ أن تفتح نافذة غرفته وتخلق حدثًا مثل ضرب رجل زوجتَه فقط لتُعاقبه!

- «أحسنت، هكذا أريدك، مُطيعًا وسهلَ المِراس، سيكون هذا أفضل لك؛ صدِّقني.»

عندما نظر إسماعيل في وجهها دون أن ينشغل دماغه بشيء آخر استفزَّه لون شفتيها المصبوغتين بأحمر داكن. كانت حتى ذلك الوقت جالسة وقد أسندت يدها على كرسيها ووضعت ذقنها عليها وهي تنظر إليه، قامت فجأة وأخذت تروح وتجيء في الفضاء الضئيل في اللوحة، اتسعت حدقتاه وهو يراها تذرع اللوحة من جهة إلى أخرى، توقفت فجأة وفكرت لثانيتين قبل أن تنطق..

- «ماذا تحتاج لتنفِّذ كل ما أطلبه منك دون أن تُتعبَني؟ صدِّق أنني لا أريد مُضايقتك بأي شكلٍ من الأشكال.»

كان ما يحدث غريبًا وأكبر من قدرته على استيعابه، فكَّر في أنه في حلم أو أن ما يحدث مجرد هلاوس في مخيلته.

- «أظن أنني عرفت ما ستُطيعُني من أجله».

قالت وهي تُطرقع بإصبعيها بجذل كمن اكتشف حلًّا ذكيًّا لمسألة صعبة، ثم ضحكت وهي تغمز له بطرف عينها اليمنى.

- «هناك أشياء كثيرة تودُّ أن تعرفها يا إسماعيل، أشياء يتجاوز عددها عمرك، وثمة طريقة واحدة لتحصل على أجوبة لكل الأسئلة التي تنخر داخلك، هذه الطريقة هي أنا..».

بدت له بعد آخر جملةٍ امرأة مغرورة إلى حدٍّ لا يُطاق، وطوال حياته كان أكثر مَن يكرههم ثلاثة: الجبناء؛ مثله، الأذلَّاء؛ مثل زوجته مريم، والمغرورين؛ مثل هذه المرأة الوقحة بأحمر شفتيها المُستفز.

- «حسنًا، كبادرة صداقة من ناحيتي لن أبدأ بالأوامر، بل بتحقيق شيء كنت ترغبه بشدة.».

قالت وهي تُلحِّن الكلمات الثلاث الأخيرة ثم سكتت برهة، وعندما لم تحظ بردِّ فعل مهتمٍّ منه قالت:

- «لا بأس، لم تكن توقعاتي منك كبيرة على أيَّة حال. والآن انتبه إليَّ جيِّدًا؛ ألم تكن طوال سنين تتحرقُ لمعرفة ما كتبته

ابنتك في تلك الرسائل التي وضعتها في الدُّرج السفلي؟»

نجحت أخيرًا في جذب انتباهه؛ إذ اتسعت حدقتاه وبدت ملامحه متحفِّزة لسماع المزيد.

- «سأقرأ لك الآن رسالةً من تلك الرسائل..»

ارتسمت على وجهه أمارات الشكِّ؛ إنها مجرد رسمة على لوحة، كيف بإمكانها أن تقرأ رسالة في درجٍ في عالمه هو؛ أي خارج لوحتها؟!

- «الآن أغمض عينيك!»

قالت وهي تقترب من سطح اللوحة وتمسك ثوبها المنزليّ بيدها، لكن جفنيه لم يتحركا.

- «قُلت أغمض عينيك، ليس عليك أن ترى هذا، سوف أرفع ثوبي قليلًا لأمُرّ!»

إلى أين ستمر هذه الجِنِّيَّة؟ ماذا تقصد؟ أغمض عينيه منصاعًا للهجتها الآمرة متجنبًا غضبةً أخرى مُحتملة.

- «والآن افتحهما..»

بدا له الصوت هذه المرة أقرب، تردَّد طويلًا ثم فتح عينيه ببطء، رآها تقف إلى جانب سريره بابتسامة ظافرة، غمزت له بحاجبيها وقالت:

- «ما رأيك يا عزيزي إسماعيل؟ لا أنتظر منك ردًّا، إنه مُرتسمٌ على وجهك، ما زال هناك كثير لأريك إياه مما يُمكنني فعله..»

قالت ثم اتجهت إلى الكومود، إن لديها ولا شك قدرات لا يمكنه تخيلها، ويبدو له كم هي مزهوةٌ حقًّا بما تستطيع فعله، بوسعه أن يرى الرغبة في الاستعراض متجلية على كل حركاتها وتعبيراتها. نظرت في عينيه ثم نزلت على ركبتيها ببطء، فتحت الدرج السفلي، توقَّفت أصابعها برهة قبل أن تلتقط إحدى الرسائل، قامت وعادت إلى تلك النقطة في مجال نظره حيث بإمكانه أن يركِّز عينيه عليها دون أن يبذل لهذا جهدًا، توقَّفت وهي تقلب الورقة في يدها ثم قالت له:

- «هل أنت مُستعدٌّ لسماع أول رسالة؟»

ودون أن تنتظر ردَّت:

«أعتقد أنك مُستعد، حسنًا؛ سأبدأ الآن».

تنحنحت وهي تفتح الورقة ثم شرعت في القراءة:

- «بابا العزيز..

لا أعرف إذا كنت ستتمكن يومًا ما من قراءة هذه الرسالة، لكنني أحتاج بشدة أن أكتب لك هذا.

لقد أوحشتني، قد تستغرب هذا لأنني لا أجيء إليك كثيرًا لأراك، لكنك أوحشتني حقًّا وأنا لا أكذب عليك في هذا، لكنني لا أريد أبدًا لأن أراك على هذا النحو، أردت دائمًا أن أحتفظ في دماغي بأجمل صورة لك، وليست الصورة التي أنت عليها الآن طبعًا، واثقة من أنك ستعذرني في هذا.

ما دفعني لكتابة هذه الرسالة شيءٌ حدث اليوم بيني وبين إحدى صديقاتي، كانت قد تشاجرت مع أبيها فصفعها على وجهها، أغضبتها تلك الصفعة منه جدًّا حتى إنها قالت لي: «إنني أكرهه»، ودون أن أُصدِّع رأسك بالأسباب الآن حاولت أن أهدِّئ من غضبها تجاهه وأخبرتها أنه فعل ذلك لخوفه عليها، قلتُ لها إن هذا طبيعي في هذه المرحلة لأن خوف آبائنا وأمهاتنا علينا يزداد كلما سعينا لنيل مزيد من حرية التصرُّف، وربما كنت قد أسرفت في التبرير لتلك الصفعة بدلًا من مواساتها حتى انفجرت في وجهي قائلة: «وأنتِ من أين تعرفين هذا كله؟ ما دمتِ لم تجرِّبي تحكم الأب وسطوته فلا تتحدثي عما لا تعرفينه!»

إنها مُحقة يا بابا، كل أفكاري عن العلاقة بين الأب وابنته بعد البلوغ هي مجرد نظريات وكلام فارغ ليس مصدره التجربة، لكن ما ذنبي؟ لقد رغبت دائما أن أعيش معك كل مراحل عمري، أردت حتى أن أجرب الهوَّة التي كانت لتُوجد

بيني وبينك عندما أبدأ الانفصال التدريجي عنك، التحولَ مع الوقت من قطعة منك إلى إنسان بذات مختلفة وإرادة حرة، هذا الانقسام الذي كان ليُخيفك ويصنع لديك هاجس فقد الطفلة التي أرى أنني كبرتُ وتجاوزتُها في حين لا يقتنعُ قلبُك مهما حصل.

هذه الهوة التي كانت لتتخذ مكانها بيننا وتتسع شيئًا فشيئًا، كنا سنقف على حافتيها ونبكي، أملأ أنا الدنيا دموعًا في حين بكاء الآباء للداخل، تصرخ من مكانك لأنك تعتقد أنني لم أعد أسمعك، وأفسِّرُ صراخك كمحاولة لاستعادة سلطة باتت تضعف مع الوقت، ويُدرك كلٌّ منا حين يفتقد الآخر كم كان يعني له وجوده الذي كان يراه مُقيِّدًا أو جلَّابًا للمشكلات.

في لحظة ما كانت ستضعف مقدرتنا على الجدال وتهترئ أيدينا من كثرة ما حاول كلٌّ منا شد الحبل نحوه، كل ما كنا سنريد فعله في تلك اللحظة هو أن نتعانق ونقول كلامًا مختلفًا تمامًا، حتى إنني تخيلتُ ذلك الحوار الذي كان من شأنه أن يدور بيننا:

-بابا، إنني أعرف أنك تُحبني وأرى هذا دائمًا في عينيك حتى وأنت تصرخ، لكنني أريدك أن تفهم أن مطالبتي بمساحة اختيار حرة لا تعني أنني أستغني عنك، ما زلت أذكر

كل المرات التي حملتني فيها على كتفيك عندما أبديت رغبتي في لمس نجمة، كم أحب أنك فعلت ذلك لي دائمًا، لكنني أريد الآن أن أُريك كم أصبحتُ أطول قامة!

وتقول لي:

-حبيبتي؛ أحزن جدًّا عندما تحزنين بسببي، أنا لا أريد أن تكوني عصفورًا في قفص، ولم يخطر لي أن أكون صيَّادًا، كل ما في الأمر أنني أخاف عليك وأعتبر نفسي مسئولًا عن حمايتك مهما بلغتِ من العمر، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي أعرفها لحبك منذ حملتك بين ذراعيَّ أول مرة. إنك مليئةٌ بالأحلام وحب التجربة لكنَّ العالم بالخارج ليس آمنًا كفاية؛ وأنا أب!

الهوة التي كانت لتُوجد بيننا يا بابا كان يمكن لكلينا أن يشترك في ردمها من جهته، أنا بطاقتي من الحب وذاكرتي الغنية بأفعالك الجميلة معي، وأنت بالتفهم وامتلاك مفهوم جديد للحماية. لكم أردتُ أن أجرِّب هذا معك، إنني أفتقد المشكلات وسوء الفَهم الذي كان من الطبيعي أن يحدث بيننا، وآمل أن يكون هناك تعويض لهذا بشكل ما».

عندما انتهتْ من القراءة نظرتْ إليه فرأت دمعًا كثيرًا يتدحرج على وجنتيه المجعَّدتين، لقد تزوجت ابنته وهي اليوم أم، لكنه لم يعرف من قبل حجم الأسى الذي انطوى

قلبها عليه بفقد وجوده الفعَّال كأب.

- «إسماعيل؛ إنك تبكي! يا إلهي، لقد تأثّرتُ بهذا!»

كان تدخلها السافر بهذا التعليق مقيتًا، ارتسمت على وجهه خطوط عبرت عن حنقه، وصل لها شعوره لكنها لم تلتفت لذلك.

- «والآن دورك لتقديم فروض الطاعة، انظر؛ سآمرك بشيء آمل ألا تتعبني كثيرًا وتنفذه دون أن تسبب لي وجع دماغ..»

بدت لها ملامحه متحفزة وغاضبة، من هذه المرأة حتى تأمره وتنتظر منه الطاعة؟ جنيَّةُ اللوحةِ، هذه الوقحة اللعينة، كيف دخلت حياته وما الذي تريده منه؟!

- «ما أريده منك هو أن تتراجع عن القرار الذي اتخذتَه أمس، لقد قررت أن تموت يوم الجمعة، وأريدك أن تتراجع عن هذا».

(٢)

لقد استطاع بصعوبةٍ بالغة أن يتخلَّص من جنِّيةٍ اللوحة، تلك المرأة المخبولة والمستفزة تُريد منه أن يتراجع عن قراره، أيٌّ بُلهٍ هذا! في نهاية الأمر تركته وشأنه بعد أن وعدته بالعودة مرات أخرى كثيرة، لكنه لن يسمح بذلك أبدًا مهما كان عليه أن يعاني من أجل ذلك، حتى إنه قد وضعها على رأس قائمة المُشتِّتات التي ينبغي عليه تجنبها لتسير خطته كما رسمها، والآن بوسعه أن يعود مطمئن البال لما كان يفعله قبل تدخلها الفج.

أول شيء يعتقد أن الله سيُحاسبُه عليه هو ذلك الذنب الذي ارتكبه عندما كان في الخامسة من عمره، وإنه ليُصاب بالقشعريرة وتراوده الكوابيس كلما طفا هذا الحادث على سطح ذاكرته. كان ذلك عندما اشترث له أمه فرخَ دجاجٍ كان عمره ساعات معدودة، كان يبكي لأن سعدًا -ابن عمته عفاف- عنده قطةٌ وأخ يلعب معهما، بينما لم يكن عنده شيء وأخته نورة تكبرُه بسبعة أعوام فات معها أوان اللعب، جادل أمه كثيرًا وكانت تجيبه بأن أباه لن يسمح بوجود حيوان في البيت، وللتخلص من إزعاجه والتسرية عنه اصطحبته معها إلى السوق، وهناك تعلَّق بفرخ دجاجٍ صغيرٍ جدًّا لم تفلح أمه في صرفه عنه، فرضخت له في نهاية الأمر واشترته له.

في البداية وعلى مدار ثلاثة أيام كان فرِحًا جدًّا بالصُّوص الذي أطلق عليه اسم «زعتر»، شغله الاعتناء به واللعب معه في صباحه ومسائه، حتى كانت أمه تحمله عَنوةً وهو يرفس برجليه لتُحمِّيَه أو تُضطر لتهديده بعقاب أبيه حتى يترك ملاعبة الصوص ويتناول غداءه، وما كان أشد مرحه عندما يسمع صوت كَتكَتتِه مُطالبًا بإخراجه من علبة الكرتون ليركض في المساحة الفارغة من الغرفة.

في صباح اليوم الرابع كان قد جرَّب مع الصُّوص كل الألعاب الممكنة، ولمَّا لم يتبقَّ شيءٌ جديدٌ يثير اهتمامه سأل إذا ما كان يمتلك مهارة سعد في إصلاح ألعابه، وبعد عشرين دقيقة كان يبكي لأخته نورة لأنه على حدِّ تعبيره: فكَّ رأس الصُّوص قبل قليل ولم يستطع إعادة تركيبه، قال ذلك وهو يحمل رأس الصُّوص في يد وجسده الذي تيبَّس عليه الدم في اليد الأخرى!

- «انظري يا نورة، إنه لم يعد يعمل، لقد تعطَّل زعتر، هل تستطيعين إصلاحه من أجلي؟ أرجوكِ!»

قال ذلك من بين شهقاته ودموعه، ذُهلت أخته من فظاعة ما فعله وقالت له قبل أن تُهرعَ لتخبر أمه:

- «هذا ليس لعبةً يا غبي، انظر إلى الدم، ألم ترَ مثله عندما جرحتَ إصبعك بالسكين؟ انظر إليه، لقد قتلته!»

ولم يفهم ماذا يعني القتل، لكن فكرة الدم وأنه خرج من الصُّوص بعد اقتلاع رأسه كما خرج من إصبعه عندما جُرح أصابته بالهلع، إن الصُّوص مثله إذن، عنده دم مثله، وما استنتجه من هذا ساعتها أنه إذا كان تألم بشدة عندما حزَّت السكينُ جلده فلا بدَّ أن الصُّوص تألَّم كذلك، وما إن خطر له هذا حتى بدأ صراخًا لم يسكتْه ضرب أمه وضاعفه تهديده بإخبار أبيه.

لكن أمه لم تخبر أباه، بل سمعها طوال اليوم تستغفر الله عن قتل هذه الروح البريئة وتسأله ألا يؤاخذ طفلها بهذا الذنب الشنيع لأنه لا يعرف. طوال سنواتٍ لاحقة سيستغفر إسماعيل أيضًا عن قتل زعتر ويعتذر لله بأنه لم يكن يفهم أن الصُّوص من روح ودم وأنه يتألم، كان يحسبه لعبة تتحرك، لكن الآن وهو على مشارف الثالثة والستين وموتٍ اتخذ قرارًا قاطعًا بتنفيذه، وحيث لا مجال للكذب أو للتعامي عن الحقيقة لأنه سيُواجَه بكل شيءٍ عما قريب، فإنه يسأل نفسه بصدق: أقَتَلتُه لأنني لم أكن أفهم حقًّا وأردتُ اختبار براعتي في إصلاح الأشياء أم لأنني انبهرتُ بحديث أبي إلى أصدقائه في اليوم السابق وأردتُ أن أحذو حذوه؟

- «لم ترَه وهو يرتعش من الألم، ذلك الثور الضخم الذي كان يتباهى بقوته، فاتك نصفُ عمرك لأنك لم تسمع خواره

كعِجلٍ مذبوحٍ وأنا أسلخُ جلدَ يده التي سرق بها».

كان أبوه يقول لمحدِّثِه ضاحكًا ومرحًا، كما لو كان يقصُّ لصاحبِه طرفة.

***

كانت طفولته قاسية وحزينة، ولكنه كان طفلًا والطفل لا يفهم معنى الحزن والقسوة؛ إنه يتألم دون أن يحقد على من آلِمه، ويحزن الآن ثم يتقافَزُ بعد ساعة أو ساعتين. ولهذا عندما عذبه أبوه في تلك الليلة لم يشعر بتعاسة ولا بكُرْهِ أبيه، شعر فقط بالألم في فكه وجلَده، ولولا أن أباه توعَّده باستكمال ضربه في الصباح ما أقدم على الهرب من البيت.

كان في التاسعة من عمره عندما أخبر الجارُ أباه أنه اقتحم حديقة بيته مع صبية آخرين لسرقة الجوافة التي لم تنضج بعد، وكان ذلك صحيحًا لكن باستثناء واحد؛ هو أن السرقة كانت غرض رفاقه بينما لم يكن هدفه سوى التجربة، أراد أن يُجرِّب تسلُّق السور والقفز منه، كما أنه لم يُكن قد أُتيح له من قبل تسلُّق شجرة، كان الأمر بالنسبة له مغامرةً وإن لم تكن في مستوى قصص المغامرات التي يقرؤها.

يومَها أوسعَه أبوه ضربًا بعصا خيزران سوداء اللون لم ينسَها قط، ظلَّ يضربُه حتى فقد إحساسَه بالألم وبجِلده،

لكمه لكماتٍ كثيرة في فكِّه الأيمن جعلته يلفظ ضرسين من أضراسِه، وحين هدَّأه التعبُ وعده أن يكمل ضربه في الصباح وتوعَّد أمَّه وأخته بالضرب إذا هما اقتربتا منه لمسح جروحه أو التخفيف عنه. أوَوْا جميعًا إلى فُرُشِهم بينما عُوقب هو بالنوم على بلاط غرفة المعيشة، وعندما انتصف الليل تسحَّب الطفل متضعضعا على أطراف أصابعه إلى الغرفة التي كانت تنام فيها أمه معه، كانت أخته تنام في حضنها على غير العادة؛ منكمشةً وخائفة، ومن مكانه كان يرى وجهها وقد غسلته الدموع وجفت فوقه تاركة آثارًا لا تخطئها العين، بينما كان وجه أمه منقبضًا بتجعيدة بين الحاجبين، كانتا تألمان لأجله، ربما من هنا تعلم العجز عن تلك الفضيلة التي تنقصه؛ فضيلة دفع الأذى عمن نحب، ربما منذ ذلك اليوم أصيب بلَوْثة عدم القدرة على إبداء التعاطف أو التعبير عنه.

اقترب من جانب أمه ببطء ومدَّ يده تحت مخدَّتها وسحب ريالين، مسَّد شعرها بأطراف أصابعه محاذرًا أن يُوقظَها، نظر مليًّا في وجه أخته الحنون، وعلى الرغم من صغره كان يعتمل في قلبه كل ما يمكن أن يعتمل في قلب إنسان من شعور بمرارة الفراق وبحسرة عدم لقاء من يحب مرة أخرى، انتزع نفسه من مكانه انتزاعًا، أغلق عليهما الباب بهدوء، قطع الصالة حتى الباب على أطراف أصابعه، ثم انسلَّ خارجًا من

البيت.

كانت نيته أن يترك أهله للأبد، لم يهدِه تفكيره لحلٍّ آخر؛ إنه غيرُ قادر على تلقّي مزيد من الضرب وهو على هذه الحال، وإذا كان سيهرب تجنُّبًا لذلك فهو يعرف أنه لا يمكنه أن يعود.

مشى حتى أول الشارع العمومي، ولما لم تساعده عافيتُه التي أنهكها الضرب على المشي أكثر وقف ينتظر أن تمرَّ سيارةٌ ما تحمله حتى محطة السكة الحديد، لم يدرِ كم من الوقتِ مرَّ لكنه كان طويلًا، ثم مرت به سيارةٌ أشار لها فتوقفت، كان الظلام كثيفًا لكنه استطاع أن يميِّز أن الرجل الذي كان يجلس خلف عجلة القيادة كان يرتدي نظَّارةً بإطار كبير وإلى جانبه كانت تجلس امرأةٌ ظلت فيما بعد تُصدر صراخًا مكتومًا من وقت لآخر وتتوجع، سأله الرجل عما يوقفه في الشارع في هذا الوقت لكن إسماعيل لم يجب، وبدلًا من ذلك رفع يده بريالٍ وسأله «هل توصلني إلى محطةِ السكة الحديد؟»، فأمره الرجل بالركوب.

كانت المرأة على وشك أن تلد وكانا في الطريق إلى المشفى، قال له الرجل ذلك ثم بدأ يستجوبه..

- «لماذا تريد الذهاب إلى المحطة؟»

- «لكي أسافر»

- «إلى أين؟»

تردد إسماعيل لحظة، لم يكن يعرف إلى أين وفي الحقيقة لا يمثّل له المكان فارقًا، أراد فقط أن يذهب بعيدًا حيث لا يمكن لأبيه أن يجده، فكّر لثانيةٍ ثم قال:

- «إلى الإسكندرية»

كان يعرف المدينة من قضاء الصيف الماضي فيها.

- «في هذا الوقت وحدك؟»

سأله الرجل بريبة.

- «إنني أعرف الطريق جيدًا»

وفي الحقيقة لم يكن يعرف أي طريق، وكان ذلك آخر سؤال ردَّ عليه من أسئلة الرجل وبعدها أطبق فمه ولم تُفلح محاولات الرجل في جعله يفتحه.

بعد نصف ساعةٍ توقفت السيارة وأمره الرجل بالنزول، قال له أنه سيُدخل زوجته ويطمئن عليها ثم يوصله إلى حيث أراد، تشكك إسماعيل لحظة، لكنه لم يكن يملك خيارًا آخر، فاستجاب ونزل من السيارة.

كانت أروقة المشفى خالية والضوء ساطعًا وأبيض، وكانت المرأةُ ما تزال تعالج أوجاعها وصراخها المكتوم، تلقَّفتها ممرضتان وحيَّتا زوجها وطلبتا منه الانتظار في المكان المخصص ثم غابتا بها خلف أحد الأبواب، جلس الرجل على أقرب مقعد مسندًا رأسه على كلتا يديه، تنهَّد ثم رفع رأسه وعندما وقعت عيناه على الولد عبرت وجهه سحابة ألم، وفهم كل شيءٍ دون أن يخبره إسماعيل بشيء، كان واضحًا أنه تعرض لضرب مبرح، ومن نظافة ثيابه وقيمتها أدرك أنه ابنُ بيت، لم يكن يشبه طفلًا من أطفال الشوارع، حالة أخرى يراها من حالات العنف المنزلي.

- «هذه الكدمات في وجهك تحتاج أن تُعالج»

قال الرجل بصوتٍ خفيض، ودون أن يترك له فرصةً ليردَّ نادى ممرضةً كانت مارَّة بالقرب منهما وطلب منها أن تعتني به وترى ما إذا كان في جسمه جروح أخرى، هاج إسماعيل لسبب لا يعرفه وبدأ الصراخ وحاول الهرب لولا أن أمسكه الرجل، ولم يهدأ حتى انصرفت الممرضة ووُعد بأن أحدًا لن يلمسه، وسيظل كلما تذكر ذلك اليوم يسأل نفسه عن سبب هياجه عندما اقتربت منه الممرضة، هل لأن أوجاعه كانت طازجة وجروحه كانت جديدة يؤلمها اللمس ولو من أجل التضميد؟ أو هل كان يشعر بالخزي من أن ترى المرأة آثار

عصا الخيزران على ظهره وبطنه؟ لا يدري، ولا يعرف لماذا كان يُخجلُه كونه ضُرب ولا لماذا تحاشى أن تطلع الممرضة على ذلك عن كثب.

في تلك الليلة وضعت المرأة طفلًا رآه إسماعيل عندما حمله الرجل بين ذراعيه، طلب منه أن يُقبِّله فانحنى الرجل وقرَّب إليه الطفل، ولسنواتٍ طويلة لاحقة لن تغيبَ عن ذاكرتِه سُمرة وجه عبد الرحيم عند ولادته وعيناه الواسعتان وهمسُ أبيه في أذنه باسمه بعد الأذان، وسيزهو على صديقه كلما احتدَّ بينهما جِدال في السياسة أو غيرها بأنه عندما وُلد حملَه بيديه هاتين وطبع قبلةً على خدِّه، وفي كلِّ مرة سيغضب عبد الرحيم ويتهم إسماعيل بأنه يلجأ للشيء نفسه دائمًا عندما يُعجزه الرد.

أنساه مولد الطفل ما كان عزم عليه من الهرب، وكانت قد طلعت الشمس عندما أبلغه الرجل أنه سيصطحبه معه إلى بيته أولًا ليوصل زوجته والطفل ويتناولَ إسماعيل الإفطار ثم يذهب معه أينما شاء، لم ينطق بموافقة ولا برفض.

وصلوا إلى البيت المقصود بعد أقل من ساعة، أو هكذا يحسب لأنه لم يكن يحسن ساعتها تقدير الوقت. كان بيتًا مكوَّنًا من طابقين تسكن عائلة الرجل أعلاهما، وعندما فُتح الباب هُرعت فتاةٌ في ثوب منزلي أبيض إلى أمها وتناولت

منها الطفل بلهفة، سألتها الأم عن إخوتها كما لو كانت تسأل موظَّفًا عن شيء عُهد به إليه.

- «تناولوا الإفطار جميعًا، ذهب سليمان إلى عمله وهشام إلى مدرسته ومصطفى ويسرا يلعبان في غرفتنا..»

كان صوتُها أعذب ما مرَّ بأذنيه على الإطلاق، وفكَّر في أنه لا بد صُنع من المادة نفسها التي صُنِع منها صوت العصافير.

قاد الأب الأم إلى غرفتها وغابوا ثلاثتهم بالرضيع ثم خرج الأب بعد دقائق، تأمله هُنَيْهةً ثم نادى ابنته:

- «نانا..»

اسمُها نانا إذن! عندما جاءت قال لها وهو يشير إليه:

-«هذا..»

وكما لو كان نسي شيئًا مُهما قطع كلامه وتوجه إليه بالسؤال:

- «ما اسمُك يا بني؟»

- «إسماعيل»

«حسنًا». قال ثم التفت لنانا:

- «هذا إسماعيل يا نانا، خُذيه إلى غرفة إخوتك وقدِّمي له

شيئًا يأكله، ثم تفقَّدي جروحه..»

قادته نانا إلى إحدى غرف البيت ووضعت أمامه خُبزًا وجُبنًا وعسلًا ثم خرجت وأغلقت الباب، وبعد أن أشبع بطنه عادت مرة أخرى وفي يدها صندوقٌ بلاستيكي صغير، جلست على طرف السرير وقالت له: «تعالَ»، وكما لو كان مُسيَّرًا استجاب لها بلا تردد، فتحت الصندوق الذي معها وأخرجت منه قطنًا وشاشًا وزجاجة كحول، مسحت الكدمات التي في وجهه وهو يتكامل على نفسه حتى لا تصدر عنه أيَّة أنَّة، قالت: «اخلع قميصك»، ومرة أخرى نفَّذ الأمر بلا تفكير، كتمت شهقةً عندما نظرت إلى جسمه المجروح والملتهب وترددت لحظاتٍ قبل أن تمسَّ جروحه، كان الكحول يحرقه لكنه تجلَّد، يكفيه خجله من نحوله وضآلته اللذين تطلع عليهما الآن من موقعها كفتاة كبيرة تنظر إليه كطفل ضئيل، لكنه كان في حاجة لحنانها، وكان، لا يدري إلا الله لمَ، يريد بشدة أن يقول: «نعم، لقد فعلَ كل هذا بي!»، لكنه لم يتكلم حتى انتهت من تنظيف جروحه.

لقد حددت يدُ نانا في ذلك اليوم شخصيته كرجل في مقابل امرأة، سيُدرك بعد سنين طويلة أنه عاش حياته ينتظر فيما ينتظر من النساء تلك اليد التي تمسح جروحه وتحنُّ عليه، بالنسبة لأبيه كان هذا نوعًا من خور الرجال الذي كان

عليه أن يستخزيَ منه، أمَّا هو فكان يرى أنه لا يمكن عيشُ حياةٍ فيها أب مثلُ أبيه بدون امرأة مثل نانا، لقد كان وجودها ضروريًّا لخلق حالة من التوازن تحمي نفسيته من التدهور ومن رؤية الحياة كثُقبٍ أسود.

علَمه الأستاذ عبد الحي، الذي عرف اسمه عندما استدعاه الأخير إلى غرفة مكتبه، أن يتعايش مع طُغيان أبيه، ليس دفعةً واحدة في ذلك اليوم بطبيعة الحال، وإنما على مدار سنوات طويلة فيما بعد، سنوات تبعت ذلك اللقاء الذي يعدُه من مفارق حياته. كان مُعلِّمًا في مدرسته نفسها، أخبره أن وجهه كان مألوفًا له لأنه رآه أكثر من مرة، بينما لا يتذكره إسماعيل لأنه لم يُدرِّسه من قبل، كانت المدرسة كبيرة، وكان يعتبرها فسحةً جيدة من مشكلاته في البيت فانخرط يمهرُ في دروسه، وما إن عرف الرجل حتى امتلك أسبابًا جديدة لحب ذلك المكان والتعلق به.

أُعيد في مساء ذلك اليوم إلى بيته، وكان البيت وكل من فيه في حالة استنفار أخافه فور أن دخل من الباب، عرف أن الرجال من أقربائه شرعوا في البحث عنه، كانت عماته يواسين أمه وأخته المنفطرتَيْن من البكاء، بينما أبوه، مدخِّنًا سيجاره بعاديةٍ في غرفة الصالون مع جار جاء لعرض المساعدة، لم يكن يبدو عليه شيء.

لم يحاول النظر ناحية أبيه، وبمجرد أن دلف إلى البيت ترك الأستاذ يجلس مع أبيه بينما هرع إلى أمه وأخته اللتين تلقفتاه بالأذرع والدموع، بالنسبة لهما كانت عودته لطفًا من الله الذي كان قادرًا على تقدير ضياعه منهما، وبالنسبة لأبيه كانت عودته سببًا لعقابه على الهرب، وتلك مفارقة عاش حياته يفكر في حضورها بهذا الزخم في حياته؛ لقد عوقب دائمًا في المرات التي عاد فيها، في مرات كثيرة كان يود أن يشرح لأبيه كيف نجا، بينما كان الأخير يعاقبه لأنه تورَّط أصلًا، كان سعيدًا لأنه لن يُحرم من وجه أخته ولمسة أمه الدافئة، وكانتا سعيدتين للأسباب ذاتها، كان بوسعه أن ينسى ما فعله أبوه ويحكي له فقط عن فرحه بالعودة، عن اكتشافه وهو على وشك الرحيل نهائيًّا معنى ألا يرى أحبابه مرة أخرى وألا يعود له بيت، احتاج بشدة أن يتكلم عن ذلك وأن يرى على وجه أبيه الشيء نفسه، ثم كفَّ إسماعيل عن انتظار ذلك منه؛ انتظار أن يسمع منه القصة بكل ما يمور في نفسه من انفعال الناجي.

عُوقب في ذلك اليوم، ضربه أبوه أيضًا، لكن كان يبدو له أن أباه لا يضربه لأنه هرب، بل لسبب آخر، كان يقول له وهو يكيل له الضرب والحنق:

- «أنا يقول لي رجل لا أعرفه كيف ينبغي أن أعامل ابني؟

أنا يُعلمني التربية ويُلقي عليَّ النصائح؟ وكلُه بسببك يا ابن الكلب!»

لكن إسماعيل عندما يتذكر ذلك اليوم الآن لا يؤلمه الضرب المبرح ولا الإهانات والسباب، بل يتذكر أنه فيه بدأت علاقته بالأستاذ عبد الحي، بابنه عبد الرحيم، والأهم وعلى وجه الخصوص نانا. يسأل كثيرًا ما الشكل الذي كانت ستتخذه حياته لو لم يعرف هؤلاء الثلاثة!

(٣)

سمع صفق جناحي الحمامة، إنها قريبة، لم تمرَّ عشر ثوانٍ حتى كانت تنْسَاب من النافذة المفتوحة، وقفت على حافَّتها قليلًا تنقر الخشب، «إنها مُرتَبِكة»، لقد حفظ طباعها جيدًا طوال ثلاث سنوات، لعل إلْفها أغضبها أو لعلها منشغلة بقوت صغارها، أم أن..؟ لا يريد أن يسترسل مع هذا الاحتمال، وإن كانت مريم دأبت على نزع صغارها أولًا بأول لتزين بهم موائدها التي لا تنتهي من أجل أبنائها، وتُبقي على الحمامة الأم لتفرِّخ لها الحمام من جديد، وفي كل مرة كانت الحمامة تجيء إليه، تقف على حافة النافذة، ويمكن له دائمًا أن يتخيَّل أنه يرى اتِّساع حدقتيها والتماع الدَّمع في عينيها الأشبه بزرّيْن صغيرين، حيلة من حيَلِه التي لا تنتهي والتي طوَّرها خلال عشرين عامًا من أجل إثراء حياته المشلولة والفقيرة ببعض التفاصيل، كان يُفوِّض خياله كلما أعجزه إدراكُ الأشياءِ بالحواس، وفي تلك اللحظة كان يؤلمه أنه مشلول، وإلا لمشى إلى الحمامة، تناولها بين كفيه ومسح على ريشها، ولقال لها مواسيًا:

- «إنها الحياة أيتها الحمامة، تقضي على بعضنا أن يكونوا ضحايا دون أن يمتلكوا منطقًا لإلقاء اللوم..».

لم تكن ستفهمه لكن هذا شيء آخر، لا يمكنه أن يتصالح مع

عجزه عن القول فقط لأن السامعة لن تفهم ما كان سيقوله.

على كل حال، لقد دأبت على زيارته مرات عِدة خلال الأسبوع، ولعل هذه زيارة عادية ليس باعثها الثُّكل، هه، ها هي ترفرف بجناحيها وتدخل الغرفة، هذا أكثر ما يكرهه، وقفت على صحن مصباح السقف وراحت تتأرجح عليه، يا لها من حمامةٍ سافلة، إنها، كأشياء أخرى كثيرة يُعَرَّض لها مشلول ولا يقدر على منعها، تصيبه بالجنون..

- «لا تفعلي، لا تفعلي.. اللعنة!»

لقد تغوطت السافلة على وجهه، يُحيِّره كيف تستطيع في كل مرة أن تصيب هدفها بهذه المهارة، إن لمريم الحق في تعذيب هذه اللعينة بسلق أبنائها أو شَيِّهم، ولو أنه الآن كان صحيحًا ويستطيع المشي على قدميه لذبحها هي ذاتها بيديه هاتين، في الوقت الذي وَدَّ فيه لو يقدر على مواساتها والربت على ظهرها، في الوقت الذي يشفق عليها من مأساتها بفقد صغارها، تدير له مؤخرتها وتتغوط على وجهه، يا لها من ساقطة، وفضلًا عن ذلك عطّلته عما كان يفعل، وليته مع هذا يعرف متى ستسدي له معروفًا وتخرج ليستأنف عمله، وحتى إذا هي خرجت فسوف يستغرق وقتًا حتى تسكن حركة المِصباح، لأنه إذا استطاع أن يغُض طرفه عن حركته فلن يستطيع التركيز في وجود صريره المُزعج، ذلك الصرير

الذي أكسبه إياه الصدأ وتقادم السنوات عليه وهو في مكانه، يجزم أن أحدًا من أهل البيت لا يخطر له أن هذا المشلول اليائس يعاني كل هذه المعاناة من حمامة، يا لهذا الخراء كله!

شعر إسماعيل بالحنق، وما كان يؤذيه ليس شعوره بأنه حانق، بل شعوره بالعجز عن أن يعبر عن ذلك بكسر شيءٍ ما أو على الأقل بإزالة سبب حنقه، وهذا ليس شيئًا جديدًا عليه، دائمًا ما يقع فريسة مشاعر من هذا النوع، لكن المختلف في هذه المرة أنه ليس له من شيء يدفعه لاحتمال ما كان يحتمله من قبل، إنه سيموت بعد أيام، وسيفعل هذا بنفسه، وكأنه بهذا العزم استردَّ شيئًا كثيرًا من إنسانيته، من حقه في الغضب وإبداء نفاد الصبر، لأنه لم يعد، في نظره هو على الأقل، مجرد مشلولٍ لا حولَ له ولا قوةَ مضطرٌّ لابتلاع كل سخافات الحياة في صمت، وإذا كان سابقًا يفعل ذلك لأنه لا خيار له سواه، ولأنه محكوم أبدًا بالسجن في جسد لا يستطيع تحريكه، ولأنه إذا غضب لكل شيء يحدث له فإن حياته ستغدو جحيمًا لا يطاق، فإنه الآن غير مضطر لهذا؛ لأنه سيموت يوم الجمعة على كل حال، وهكذا قرر ألا يفوِّت في هذه الأيام الثلاثة شيئًا يُغضبه دون أن يغضب، ويا للغرابة كم شعر بالغبطة لهذا القرار! نعم؛ سوف يغضب ما وَسِعَهُ أن يغضب!

كما أنه يغضب الآن لأنه رغب بشدة في ألا يقاطعه شيء لم يحسب حسابه، لأنه، هو إسماعيل الذي يتذكره منذ تلك الأيام التي كانت له فيها شخصية تتعامل مع الآخرين، يرتبك كثيرًا أمام المواقف المفاجئة، ودائمًا ما وجد نفسه في تلك الحال عاجزًا عن التصرف؛ لا يستطيع المواصلة كأن شيئًا لم يكن، ولا يسعفه دماغه بطريقة للخروج من المأزق، ولعل هذه كانت إحدى فضائل نانا التي تستمد أهميتها لديه من شعوره بأنه لا يملكها مع احتياجه لها؛ أنها كانت تمتلك حلولًا، وعندما لم تملك الحلول كانت تجيد التحايل..

- «إذا لم تستطع حل المشكلة فاعتبرها صاحِبًا أنت مضطر لرفقته أو مرضًا لا مفرَّ من التعايش معه..»

كانت تقول له، وكان يحترم حكمتها هذه جدًّا، وإن لم يفلح قط في أن يتخذ من مشكلاته أصحابًا أو يتعايش معها، يحتاج من أجل ذلك أن يكون قويًّا كفاية ليتحمل ما يكره، متواضعًا كفاية لكيلا تأنف نفسه من الرضوخ والتقبُّل، ولم يكن يمتلك أيًّا من الفضيلتين؛ لم يكن قويًّا فلم يأخذ نانا، ولم يكن متواضعًا فلم يتقبَّل خسارتها.

يقول لنفسه: لم أُفلِح في التأقلم مع مشكلاتي، ولم أفلِح أيضًا في حلِّها، الشيء الوحيد الذي أفلحْتُ فيه هو التذمر، لقد جلستُ في الزاوية وأكلتُ نفسي فقط حين كان عليَّ أن

أفعل أشياء أكثر جدوى.

إن ذاكرته تنعطف به في مزالق خطرة، يمكنه فهم هذه الحيلة، عليه أن يكون أكثر انتباهًا بعد الآن، وها هي حركة المصباح على وشك أن تسكن وقد خرجت الحمامة، يستطيع، تصفيةً لذهنه ومنعًا لانخراط ذاكرته في موضوع آخر خارج السياق، أن يعدَّ إلى العشرة حتى تسكن حركة المصباح ويستأنف من جديد:

«١.. ٢.. ٣.. ٤.. ٥.. ٦.. ٧.. ٨.. ٩.. ١٠»

صريرُ الباب.

(٤)

إن مريم تجيء دائمًا في أوقات غير مناسبة، لم يستطع بعد أن يكون منتبهًا لمواعيدها، ولعل السبب لا يرجع إلى دخول مريم في حدّ ذاته بقدر ما هو راجع إلى شروده حتى موعد دخولها دون أن يشعر. كانت تحمل في يديها طبقَ الماء والمطهر ومنشفةً وحفاضًا نظيفًا، وعلى الفور نقلته من الكرسيّ المتحرك إلى السرير ثم شرعت في تقليبه وتنظيفه بالمنشفة، تغطّسها في الماء ثم تعصرها فتفردها وتمسح بها جسده تِباعًا، ولما انتهت بدأت بملامح جامدة تفُك حفاضه القديم، لم يكن على وجهها قرف ولا اشمئزاز كالمرة السابقة، كانت حركاتها آلية، ولفرط ما اعتادت هذا العمل طوال عشرين عامًا لم يعد يحتاج منها تركيزًا، كانت يداها تعرفان جيدًا ما عليهما فعله، ومرة أخرى يشعر إسماعيل بالحقد عليها من أجل ذلك؛ إنها تكشف عورته -وهو شيء يجرحه بشدة- وتفعل ذلك بملامح جامدة وبرود، إنها لا تأبه به، لم يعد يعنيها أمره ولا حرمانها من أن تكون امرأة لزوج، ولعله لم يعد يعنيها منذ وقت طويل جدًّا، هل أنتِ سعيدة الآن يا امرأة؟ لقد تمسكت به مريم حينما أراد أن يتحرر منها، التصقت به مثل عَلَقة، والآن لا تأبه به، أقصى ما يمكن أن ينتظره منها أن يرى عليها أمارات الاشمئزاز والقرف أو نفادِ

الصَّبر، يحيِّره دائمًا كيف استطاعت هذه المرأة أن تلتصق به وهي تعرف أنه لا يريدها ثم هي الآن التي تزهده، إنه يعرف أنها لم تعد تريده، هل هي كبرياء المرأة التي تأبى أن تُترك وترى في الهجر من هذا النوع جرحًا لكرامتها؟ هل احتفظت به مريم فقط من أجل أن تُريَه أنها هي التي تطرحه من قلبها كما يُطرح الغرض القديم إذا لم يعُد ينفع في شيء؟ هل يسعدها هذا الآن؟ هل شفت غيظها برؤيته ذليلًا طوال هذه السنين؟ بمعرفتها أنه غير راضٍ عن تقليبها في جسده واطلاعها على عوراته وهو في أحطّ حالاته وأقذرها؟ هل تحس في هذا انتصارًا ما؟ أو تقول لنفسها إنه وصل إلى تلك الحال المزرية والمثيرة للشفقة والقرف بانتقام الله منه، وباستجابته لدعاء قد تكون دعته عليه؟ طالما وَدَ أن تجري بينهما هذه المكاشفة، لكنه، ولسنين طويلة، سُلِب القدرةَ على طرح الأسئلة والأملَ في راحة الإجابات، إذا لم يكن هذا هو الجحيم فماذا يكون؟

لكنه لا يستطيع أن يتغاضى عن أخطائه معها، إذا كان يسعه أن يفعل هذا في وقت ما فليس يسعه الآن، ويعرف جيدًا أن عدم محبَّته شخصًا ما لا يسوِّغ له إيذاءه أو تجاهل ما يتسبب له فيه من الألم، ربما يبدو له الآن من غير المُنصِف لمعاناته في زواج لم يرغب فيه أن يعترف بأنه ظَلَم مريم، لكنها الحقيقة، لقد ظلمها حتى وإن لم يتعمد ذلك ولم

يرغبه، صحيح أنه لم يستطع أن يبادلها الحب، أو أن ينظر في عينيها النظرة نفسها التي كانت تتطلع بها إليه، أو أن يحس ويجعلها تحس بأنهما قريبين؛ على الأقل إلى الحد الذي يجعل رجلًا وامرأة يتشاركان ثلاثة أبناء، صحيح أنه لم يستطع أن يفعل أيًّا من هذا، لكنه ظلمها عندما عجز، وعندما كان أضعف من أن يحررها من زواج مكدر وحب ميئوس منه، وقد ساعدته هي على هذا الظلم عندما لم تتخذ قرار البتر، عندما -بدافع من الجبن أو العناد أو الكبرياء- تمسكت بزواج كانت تعلم في قرارة نفسها أنه خَرِب ولا أمل فيه.

لقد دأب إسماعيل على أن يرى ألم مريم ويتظاهر بأنه لا يراه، ألم يكن يعرف أنها تعلَّم بوفائه لحبه الأول على الرغم من زواجه منها؟ ألم يرَ دموعها وكسرها عندما أذاع أبوه في حضور عائلي أنه يريد أن يتزوج الثانية؟ لكنه لا يحاسب نفسه بضراوة على ألم كانوا جميعًا شهودًا عليه، بل على تلك الآلام التي كانت تحرص أن تخفيها عن كل الناس ورآها هو على الرغم من ذلك، على إحساسه بها تتأمله في نومه كما يُحدِّق عاشِق في خيبة أمله، على تمسيدها خفيةً بالليل منديل نانا الذي وجدته في جيبه ولم يفلح في تلفيق كذبة، على صوت تنفسها المضطرب ببكاء مكتوم بعد كل مرة يصدها ويحبط محاولاتها للاقتراب منه، إنه لم يُحب مريم قَطّ، لكنه يعترف أنه عذَّبها كثيرًا، ولا يخفف عنه شعوره

بالذنب أنها رضيَت دائمًا بذلك العذاب دون أن تنبس.

من أين بالضبط في حياته تعلَّم هذه اللامبالاة وهذا الجمود أمام آلام النساء؟ وإذا كنَّ مخلوقات جُبلْنَ على تحمل عذاباتِهِنَّ في صمتٍ فلماذا صمت هو على الدوام؟ لقد رأى كل امرأة عرفها وهي تتألم، لكنه لم يحرِّك ساكنًا ولو لمرة، في صغره كان يرى الكدمات في جسم أمه، وكان يصمت، حتى إنه كان يُدرك عذابها السريَّ جدًّا، ذلك الذي لم تكن لتجرؤ على أن تخبر به أيَّة امرأة، كان أبوه يقول لها «أغلقي الناموسية» فتضطرب وهي تقول «أمرك»، ثم يسمع نشيجها المكتوم بجواره آخر الليل ويرى على جسدها في الأيام التالية ازرقاقًا هنا أو احمرارًا هناك، ولأنه لم يكن يفهم كان يصمت، وفي مراهقته عندما فهم ما كان يحدث وكان أبوه يلقي لها الكلمة ذاتها كأمر أراد في كل مرة أن يقول لأمه «لا تذهبي!»، كان يحتشد في حلقه كلام كثير ربما لو كان قاله في مرة من المرات لكان أصبح رجلًا آخر غير الذي هو عليه الآن، أراد دائمًا أن يصرخ فيها: «لماذا تذهبين إلى سرير رجل يستدعيك إليه عندما يرغب كما تُستدعى الأَمَة ثم يستكبر أن تشاركيه النوم فيه فتتسللين منه آخر الليل؟ لماذا ترضين أن يؤلمك رجل حتى يشعر باللذة؟ لماذا تطيعينه في كل مرة ثم تعودين لتبكي في صمت؟!».

لكنه لم يقُل أيًّا من هذا كله، أكان يخجل من أن تعرف أمه أنه صار يفهم؟ أم كان يُشفق عليها من أن تدرك أنه يفهم بالذات أيَّة حال تكون عليها عندما تدخل تلك الغرفة وعندما تخرج منها؟ لا يعرف بالضبط، لكن المؤكد أنه فهم في ذلك الوقت أهم فارق بين الرجال والنساء، إنها امرأة، وهذا يعني أنها تقدس التحمُّل، تعتنقُه دينًا بعد دينها، بينما لو كان محلَّها، أي لو كان بهذه الشخصية الرجولية ذاتها امرأة لا يتوانى رجل عن إهانتها وإيلامها، ما كان تردد لحظة في خنق ذلك الرجل؛ أبيه، في أثناء نومه. أهذه هي حكمة الله في خلق النساء على هذا النحو؛ ضعيفات وقليلات الحيلة في الأعم الأغلب وكل ما يَسْتَطِعْنَه حيال معاناتهن هو الحزن وذرف الدموع؟ أجُبِلهن على التحمُّل والصبر حتى لا يقتصصن لمظالمهن في الدنيا فيفسد نظامها ولا تبقى لهن عين على الآخرة؟ أم حتى لا ينهدم بيت وإن كان قائمًا على ظُلمِهن وآهاتِهن؟

من هذه الطفولة إذن استقى برودته تُجاه آلام النساء، هل فهم من احتمالهن الصموت أن المعاناة من الرجال هي الأصل وأن الأمر طبيعي؟ أكان تجاهله طبْعًا غير إراديٍّ غرسته فيه نشأته وطبيعته التي تتخذ التغاضي عن الألم طريقة مُثلى للتعامل معه؟ أم أنه تجاهل عن عمْد أحزان نساء كان يشعر تُجاههن بالحنق لخضوعهن المُذِلِّ وابتلاعهن الصامت لكلِّ

ألوان المَهَانة؟

يعتقد أنه الأخير؛ إذ تلك نانا لم يكن يحتمل أن تطرف عينَها شعرة، نعم؛ إنه ليس باردًا أو غير مبالٍ، هو فقط اختار ألَّا يعبأ بألَمٍ لا يُبدي صاحبه أيَّة مقاومة تُجاهه، وألا يأبَه بضحية تستسلم لسوْط جلَّادها دون الجرأة على مجرد إطلاق الآهة، لكن ألا يعود خوفه على نانا وحزنه لِما مرت به إلى حبه إيَّاها دون غيرها؟ إذا لم يكن يحبها هل كان ليبالي على أيَّة دمعة نامت؟ هذا أكثر منطقية، إنه يهتم لأمر نانا لأنه يحبها، واهتمامه لها ليس حُجة داحِضة ضد تهمة البَلَادة؛ ذلك البرود الذي بوسعه أن يسميه «العُنف السلبي تُجاه النِّساء»؛ حيث يساهم كرجل في الإساءة لامرأةٍ بأن يسكت عندما يراها تُهان أو تعذَّب، لأنه في نهاية الأمر لا يمكنه أن يزعم أن الضمير انتقائي دون أن يحتقر نفسه، ولَأن يعترفَ بأنه بليد أو عديم النخوة أهون عليه من أن يلفِّق سببًا كاذبًا لتسكيت ضميره أو تنظيف صورته أمام نفسه.

لكنه على الرغم من اعترافه بهذا لن ينسى أن النساء أنفسهن، على الأقل في البيئة التي نشأ فيها، كنَّ بليدات تُجاه مآسيهن. إن كل امرأة عرفها كانت تعاني بشكل ما، وكلهن كن يُلفِّقن أسبابًا للتحمل بدلًا من البحث عن نقطة للخروج، وفي

اجتماعاتهن النسائية التي شهدها أو اختلس السمع إليها كان يسمع أحاديثهن المتخمة بالحكمة الزَّائفة، في البدء كان يستغرب أفكارهن الخَنُوع عن أنفسهن وأزواجهن، وهو الآن يود لو عاد للوراء؛ إلى تلك الاجتماعات اللعينة، ليفهمهن أن الأوْسِمة التي يعطينها لأكثر النساء تحمُّلًا لغطرسة الزوج وإيذائه وهمِيَّة، وأنه ما من بطولة في أن تصبر المرأة على ذُلِّ زوجها أو تعنيفه إيَّاها بالضرب أو الإهانة، وأنهن على هذا النحو ينشئن رجالًا يحملون العقيدة نفسها، ينظرون من فوقٍ للنساء باعتبارهن جِنسًا أدنى، ويُطِيلون أيديهم عليهن بسببٍ وبدون سبب كإثبات رجولة، ويرون، في خضوعهن وثنائهن على النساء الحَمولات ووصمهن لكل امرأة لا تقبل المذلة بالتمرد، دليلا على صحة معتقدهم عما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين الرجل والمرأة.

إنه يشعر بالحنق الشديد، مملوء بغضب لا آخر له تُجاه نساء طالما أحبهن وطالما شعر بالحزن عليهن، لا يغضب فقط لأنهن ساعدن في استدامة أحزانهن، وإنما أيضا لأنهن ربَّينه دون أن يشعرن ودون أن يشعر هو أو يريد على هذا الذي يحقره في نفسه الآن ويسخط عليه. لقد ساهمن بشكل ما في صنع هذه الشخصية الجبانة والبليدة، الساكتة وغير المُبادرة، والتي إن فارت في دمها النخوة برَّدها الجُبن والخوف من مواجهة أشياء قد يجِد في نفسه في وقت آخر

شيئًا منها، لقد شعر دائمًا أنه لا يختلف عن أيّ رجل أراد أن يمنعه من إيذاء امرأة، كان يثور ويغضب، لكنه بدلًا من أن يرد صفعةً أو يُمسكَ يدًا أو يمسح إهانةً في مُطلِقِها كان ينكفئ نحو الداخل فيرى أنه الرجل نفسه، وأنه ليس بعيدًا عن فعل الأشياء عينها.

المرأة من اللوحة:

-«إسماعيل! بسسسسس، إسماعيل! انظر إليّ، انظر ماذا أحضرت لك هذه المرة..

أف! لا تتظاهر وكأنك غير منتبه، هيا انظر إليّ، أعرف أنك قررت قبل ساعات ألا تنظر إليّ أبدًا خلال الأيام الثلاثة القادمة، لكن صدّق أنني أحضرت لك شيئًا ستُحبُّ سماعه الآن بالذات، هل حقًّا ستموت يوم الجمعة يا إسماعيل؟ حسنًا حسنًا، لن نتكلم في هذا الآن، لكن انظر إليّ أرجوك..

لا، إياك أن تعود للشك، صدّقني ليس من مخيلتك ما سأريك إياه، وكن على يقين أنني بذلت جهدًا لتركيز قواي السحريَّة حتى أُحضر لك هذه القطعة من الماضي. انظر أرجوك!»

***

الزمان: ١٩٧٢

المكان: غرفة النوم في بيت الحاج صالح

تُشغِّل مريم ارتباكها في العبث بأزرار قميصها المنزلي، وحين تتركها أمها وحدها مع خالتها وتغلق الباب تبدأ الارتجاف.

- «هيا يا حبيبتي اخلعي هذا القميص، الوقت ضيق ونريد أن ننتهي من الجلوة قبل مجيء الحنَّانة»

تقول خالتها سعاد وهي تمطُّ بين يديها قطعة حلوى. تزدرد مريم ريقها وتنطق أخيرًا:

- «لماذا تزوجونني به يا خالتي؟»

- «ألا تحبينه يا مريم؟»

- «إنه لا ينظر إليَّ»

- «تعرفين طبع إسماعيل، إنه خجول»

- «لن يحبَّني أبدًا»

- «كم سنة عشتِ في هذه الدنيا يا ابنتي؟ سبع عشرة سنة؟ ما زال أمامك كثير لتعيشيه وكثير لتفهميه»

«إنه لن يحبني!»

-«انظري إليَّ، ما زلتِ صغيرةً وغَضَّة، طبيعي في سنك هذا

أن يعجبك الحب، أن تحبي نظرة الرجل إليك بهُيَام ونظرك إليه بالطريقة نفسها، لكن هذا كله سيتغير عندما تنضجين.

خذيها نصيحة من خالتك التي جرَّبت غياب الرجل، الأمان هو ما نبحث عنه عندما نكبر كفاية لإدراك حقائق الأشياء يا مريم، نتطلع لأن نكفَّ عن الوسوسة آخر الليل بشأن الأبواب والنوافذ ومقابس الغاز، أن نتوقف عن الخوف من الشيخوخة والمرض والعيش في بيت لا يبقى أمام بابه كلَّ ليلة أكثر من حذاء واحد.

عندما تكبرين لن تعودي تبحثين عن رجل تحدقين في وجهه طوال الوقت شغفًا به، وإنما عن رجل تستطيعين أن تنامي بطمأنينة وأنت تعطينه ظهرك، لن تنتظري الذي يُمطِرك بكلمات الحب والغزل كل يوم، بل ستتمنين رجلًا يمنحك الستر خلف باب مغلق وطبخة في الإناء وطفلًا في حجرك، هل تفهمينني يا ابنتي؟»

- «ماذا إن لم يكن يريدني؟»

-«لا يريد مَن؟ مريم؟ أجمل بنات العائلة وأكثرهن فتنة ودلالًا؟»

قالت وهي تنزع قطعة الحلوى عن ذراع مريم، كتمت الأخيرة صرخة ألم، بينما استطردت الخالة:

- «لا تكوني ساذجة، إن قلب الرجل ليس إلا جزءًا من غريزته، يمكنه قبل اشتعال الغريزة أن يتعلق بأيَّة امرأة كانت، ولكنه متى أُدخل على امرأة جميلة في الوقت الذي يُدرك فيه جمال المرأة لم ينفك عنها، وأنتِ جميلة..»

- «لكنه كان يريد الزواج...»

تقول مريم فتقاطعها الخالة قبل أن تُكمل:

- «اسمعي، إياكِ أن تُلقي أذنك لما تقوله نساء العائلة، وإياكِ إياكِ أن تفكري في تلك المرأة أو تقارني نفسك بها، ستظلين أنتِ الفائزة طالما ستكونين أنتِ التي في بيته وفي عصمته، أنتِ التي يُفضي إليها ويعود إليها آخر كل يوم، أنتِ التي سينجب منها عياله، لكنك متى بدأتِ مقارنةَ نفسكِ بها خسرتِ قبل إتمام المقارنة، مُدّي ساقيك هيا حتى ننتهي من هذا الأمر..».

تقول وهي تمطُّ قطعة حلوى جديدة بأصابعها، تمدُّ مريم ساقيها وتقول لنفسها إن إسماعيل لن يُحِبها أبدًا ما دامت هناك تِلك المرأة، تعرف هذا جيدًا وإن لم تكن تود أن تصدقه؛ فلن يحبها أبدًا ولن يتوقف قلبه عن الركض خلف نانا، وستُثبت لها الأيام أنها كانت على حق.

***

يسأل إسماعيل إذا كان ما أرته إياه حقيقيًّا، وإذا كان كذلك فكيف استطاعت هذه الجِنِّيةُ اللعينة أن تعرف شيئًا حدث في ماضيه ولا يعرفه هو نفسه، وكما لو كانت جالِسَة في دماغه ويمرُّ بها كلُّ ما يتردد هناك قالت له:

- «إنني أعرف أشياءَ أكثر مما تتصور، في اعتقادي أنك أيضًا تود معرفتها، ماذا قلت؟ أما زلت مُصرًّا على الموت يوم الجمعة؟»

(٥)

لم ينتبه لدخول مريم حتى اقتربت منه، كان عقله حبيسَ ذلك اليوم، يوم زفافهما. قال له أبوه بتورية كريهة:

- «كن أسدًا يفترس لا حمارًا يتحسَّسُ»

هكذا إذن كان يعامل أمه؛ كأسد يفترس، يعتبر اللطف معها جريمة في حق ذكورته التي لعله كان يقيسها بعدد الكدمات على جسد أمه في كل مرة. أومأ ليقطع الطريق أمام حديث قد يمتد أكثر، وما إن غادروا جميعًا ودخل الغرفة على مريم حتى اشتغلت في رأسه تورية أبيه، عندما وقعت عيناه عليها لم يرها إلا غزالة قابلة للافتراس، وهو كان يكره أن يكون مفترسًا، كان يريد امرأة يستطيع معها أن يكون إنسانًا، امرأة تُمكنه من أن يكون رجلًا آخر عكس أبيه في كل شيء، وهذه الغزالة المنكمشة التي تجلس على طرف السرير وتطرق برأسها كانت تذكِّره بأمه، تستفز حساسيته تُجاه احتمال أن يصير أباه.

إنها هنا الآن، بعد سبعة وثلاثين عامًا، لكنها لم تعد غزالة منكمشة، صارت ضبعة خرساء. كانت تُخرج أدويته من الدرج، بدأت تُعبِّئُ الحقنة، كانت شاردة، لقد كفَّت منذ زمن طويل عن الكلام معه، وعلى العكس منها كانت هي إحدى

العلاقات الرئيسة في حياته ولم تتوقف قط عن كونها كذلك، أما هو فيظن أنه لم يعد من علاقاتها، كان شيئًا تعتني به بدافع الواجب والعادة، لا فرق في ذلك بينه وبين طيور الحمام والبط التي تربيها في سطح المنزل، وهي على الأغلب نسيت تمامًا كونه إنسانًا، كونه على الرغم من شلله ما زال يُحس ويُدرك، ولربما تجهل أن لسانه وجسمه تعطَّلا ولكن عقله ما زال شغالًا بضراوة، وتجهل أيضًا أنه مجبرٌ على التفكير فيها كونها الجزء الأكبر في عالمه المحدود للغاية، إنه لا يرى أحدًا بقدر ما يراها، ولم يرد ألا يرى أحدًا بقدر ما أراد ألا يراها. لنقُل إنَّه مُجبرٌ على رؤيتها كل يوم بسبب شلله وعجزه عن التعبير فضلًا عن تغيير الوضع بنفسه، فما الذي يُجبرُها هي؟ ما الذي حَمَلها على ربط مصيرها به طوال كل هذه السنين وهو موقن أنها توقفت منذ زمن عن محبته؟ أهي الرغبة في نيْل وِسَام التضحية الرفيع من نسوة العائلة بالذات ومن كل المعارف ومن نفسها؟ أم الخوف من الوصْم بالخسة إن هي اختارت أن تفارق رجلًا لم يعد أكثر من كوْمَة عَظمٍ في فراش عطِن؟ أم تفكيرها أنها مرتبطة بعيالها لا به، وأنها تعتني به فقط لأجل أن تظل معهم تحت السقف نفسه؟ أم أن رجال العائلة أجبروها بشكل ما؟ أم تراها معه فقط لأنها تخاف إن هي تركته أن تنهشها ألسنة النساء أنفسهن في مجتمع يعتبر الزوج ندبةً في حياة المرأة؛ لصيقًا بشعورها

الداخلي بالواجب إلى هذا الحد ولا يمكن التملُّص منه، في حين ليست كذلك بالنسبة له؟

إنه لن يعرف أبدًا لماذا ظلَّت مريم معه، لن يعرف دوافعها، أفكارها، ولا مشاعرها، لم تحدِّثه في أيٍّ منها، ولا هو قادر على السؤال. ولكن لا، لعله يستطيع أن يخمِّن ولو قليلًا، بوسعه أن يتخيَّل الآن أن السبب الذي يعتقد أنها كان لا بد أن تتركه لأجله هو نفسه السبب الذي من أجله ظلَّت معه، نعم، يريد الإنسان بشدة أن يفوز على مُبارِزه ولكن لا يُمكنه أن يُجهِز عليه إذا سقط سيفه وصار أعزلَ، ينتظر حتى ينفض عن نفسه التراب ويتناول سيفه حتى لا يُحرز نصرًا غير جدير بسوى البصق واللعنة، ولعل مريم كانت تنتظره أن يُشفى حتى تتخلص منه، أتُراها تندم الآن لأنها تمسَّكت به صحيحًا؟ أتراها ترى الآن أنها تمسَّكت بأمل مُخادِع في نصرٍ نظيف لعين أدركت بيأسها من شفائه أنها لن تحوزه أبدًا؟ مسكينة مريم؛ على الرغم من أنه لا يُحِبُّها، وهذه حقيقة فجَّة يشعر حيالها باللامبالاة وإن تكن مثل نَصْل يوقن أنه مستقرٌّ في قلبها منذ سنين، إلا أنه يشعر حيالها بالشفقة؛ شفقة الإنسان على مَن لا يعنيه أمره، إنها لن تستطيع أن تقول له يومًا ما وهي تشعر باسترداد كرامتها: «لقد بقيت إلى جوارك في محنتك يا إسماعيل وفي حين لم يكن منك نفع لأنني أصيلة وأحفظ العشرة، أما وقد شُفيت الآن فإنني

أنا مَن يتركك، أنا من لا يريدك!».

على كل حال لا جدوى لهذه الأفكار الآن، عليه أن يغلق هذه الأسئلة قبل أن تلتف على دماغه وتسحبه إلى فخِّها، وإذا فعلت فلن يكون بوسعه الخروج قبل أن يكتشف فوات الوقت.

كانت تحقنه بالدواء عندما رنَّ جرس الباب، وضعت الحقنة الفارغة على المنضدة الجانبية وخطت خطوتين يمينًا ففتحت الشبَّاك قبل أن تخرج من الغرفة لتفتح الباب، وبعد ثوانٍ تناهى إليه صوت ابنه مصطفى، ذلك الصوت الرخيم الذي طالما شبَّهه بصوت صديقه عبد الرحيم، ولم يكن ذاك وجه الشبه الوحيد بين ابنه وصديقه، فقد كان مصطفى أيضًا رجلًا من النوع ذاته، النوع الذي يتلقى الدنيا على قلبه وضميره، وأكسبه تعلقه بعبد الرحيم في طفولته الأولى كثيرًا من صفاته، خاصة حبه للأدب والصِّحافة، كان مصطفى يشبه صديق أبيه أكثر مما يشبه أباه نفسه، وعندما ينظر إليه إسماعيل يشعر بالغِبطة لأن الولد حظِيَ بما لم يستطع الأب أن يحظى به، فقد كانت له قُدوة؛ رجلٌ ينظر إليه بانبهار ويقول: أريد أن أكون هكذا عندما أكبر، حتى وإن لم يكن هو ذلك الرجل، فقد كان هو نفسه ينظر إلى عبد الرحيم ويتمنى لو أنه استطاع أن يكون مثله، وأكثر ما حسده عليه قدرته

على قول «لا» لكل ما لا يرضى عنه بِغَضِّ النظر عن العواقب، وربما لهذا السبب مات عبد الرحيم في تلك السِّن، ربما لأن الدنيا لا تحتمل كل هذه الكثافة من قول «لا»!

أما هو، إسماعيل، فقد عاش طويلًا على الرغم من أنه كان من المنطقي ألا يكون حيًّا الآن، إنه حي كما لو كانت حياته نكايةً فيه، وإمعانًا في النكاية ينظر إلى الخلف الآن ويعدُّ أخطاءه، يتفكر ويُجهد نفسه ليرى أيَّة حياة عاش، ويُخَيَّل له عند مقارنة حياته بحياة صديقه أنه لم يكن أكثر من قُمَّلَةٍ صغيرة.

- «إنك هكذا تمامًا يا إسماعيل؛ مجرد قُمَّلة صغيرة لعينة!»

يقول لنفسه وقد أحس بارتفاع ضغط دمه. لماذا ينفعل هذا الانفعال كلما تذكَّر عبد الرحيم؟ ألم يكن يُحبُّه؟ بلى، لقد كان صديقه الوحيد وحافظ أسراره، ولكنه على الرغم من المحبة يحسده لأنه كان كل ما لم يقدر أن يكونه هو، ويحقد عليه لأنه مات بكل هذه النظافة، مُخلِّفًا وراءه كل ما يستطيع رجل أن يتركه في نفوس من عرفوه من الاحترام ولوْعة الفراق، في حين كفَّ إسماعيل عن أن يبعث في نفوس من يعرفونه شيئًا سوى الاستثقال والقرف، وبدلًا من أن يُشيَّع يومًا ما بالدمع واللوعة يوقن أن أحدًا لن يهتم بالمشي في جنازته إلا بدافع الواجب، وأن الماشين في جنازته سيكونون

قد نسوا وجوده منذ وقت طويل لا يمكنهم معه استحضار أيَّة شفقة على الملامح أو حزن في نبرة الصوت، حتى الأماكن التي سيمرُّ منها إلى مثواه الأخير لن تتذكره، لن تتذكر خطواته المترددة ومشيه الطويل، هذا في حال أنها ظلَّت كما كانت حين مشى فيها آخر مرة، ولا شيء يظل كما هو لعشرين عامًا.

أشياء نسي إسماعيل عدَّها فيما كان يودُّ فعله طوال تلك السنين ويحزنه أنه لم يستطع.

أن يمشي في الشوارع، أن يشعر بقدميه تمشيان.

أن يُلقي التحية على المارة وأصحاب الدكاكين.

أن ينحني لربط رباط حذائه.

أن يشتري حذاءً جديدًا.

أن يستقلَّ حافلةً عامة ويستمع إلى أحاديث الناس.

أن يرى انعكاسات الظِّل على واجهات المباني والبيوت.

أن يتوقف عند بائع الفاكهة ويشتري بطيخًا لرقية أو مشمشًا لمصطفى أو موزًا لعمرو.

ما زال يذكر كل تفاصيل أبنائه، الفاكهة المفضلة لكل منهم وكيف ينام إذا أرِق، عمرو لم يكن يأرق أبدًا، طالما غبط هذا

الولد على راحة بالِه، ما أن يضع رأسه على الوسادة حتى ينعَس، يأوي إلى الفراش في وقت محدَّد ويستيقظ في وقت معلوم، يسأل عن الطريقة التي يمكن للإنسان بها أن يُروِّض ضميره حتى لا يُصدر صوتًا عند دخول السرير، ويسأل كيف عرفها عمرو وحده ولم يعرفها مصطفى على الرغم من أنهما أخَوان، طالما كانا عكس بعضٍ في كل شيء، مصطفى نزيه وغضوب، عمرو بارد بضمير من النوع المطَّاط، النوع الذي يمكنه من أن يتكيَّف مع أي مِقاس يريده، مصطفى صادق ومندفع، أما عمرو فمُجامل ولا ينطق كلمة دون حساب، كان عمرو دائم التقرب والتزلُّف إليه وكان هو من موقعه كأب يعرف أنه كالقطة التي تتمسَّح في صاحبها حين تجوع أو تطلب اللعب، أما مصطفى فطالما كان كتُوم العاطفة، قصيًّا بنفسه على الرغم من مراعاته الآخرين، وكانت علاقته بعبد الرحيم استثناءً من طبيعته الميَّالة للبعد والعُزلة، وللغرابة لم يكن إسماعيل يحقِد -فيما يحقد على صديقه- أنه استأثر دونه بقرب ابنه؛ أحب أبنائه إليه، بل ما زال حتى الآن يشعر بالرضا والغبطة لأن ابنه وجد لنفسه مثالًا، وليس تصالحه مع كون هذا المثال رجلًا آخر غيره إلا لمعرفته أنه لا يصلح مثالًا على شيء جميل، إنه ابن محجوب مشالي، وإذا كان سلم من الشبه به -وهذا شيءٌ لا يدَّعيه- فإنه ناتج تربيته، إذا صحَّ أن يُقال «تربية» عن شيء

فعله محجوب.

علامَ من الممكن أن يكره عبدَ الرحيم لإيثار ابنه إياه عليه؟ لقد نجا مصطفى من أن ينظر إليه ويستنسخ نفسه منه، وهذا شيء كان يُرعبه منذ أصبح أبًا؛ أن ينظر إليه أبناؤه طويلًا ويكونوا مثله، ولهذا يعتقد أنه عاش السنين التي عاشها كأبٍ في محاولة دائبةٍ للاختباء، في خوف دائم من أن يرى أبناؤه إسماعيلَ الذي يعرفه هو، إسماعيلَ الثقيل كجبل وغير الثابت على الرغم من ذلك، الضعيف أمام أبيه وغير المتأكّد من شيء، إسماعيل المهزوز والجبان والسلبي والعاجز عن إظهار عاطفته في غالب الأحيان تُجاه الأشياء التي يحبها أو الأشخاص الذين يعنون له. لم ينظر إليه عمرو الذي لم يكن ينظر إلى أحدٍ سوى لنفسه، ودخل عبد الرحيم دماغَ مصطفى إنقاذًا غيرَ متوقَّع من جريمة قتل تربوية، أمَّا رقية فقد كانت أكثر أبنائه تعلُّقًا به، كانت تنظر إليه بولَعٍ كما لو كان ساحرتها الطيِّبة، ومن حُسْن الحظ أنه عندما أُصيب بالشلل كانت أصغر من أن يُسهم القدْر الذي استقتْه منه بالتقليد والعشرة في تحويلها إلى نسخة منه؛ الأمر الذي ما كان ليغفره لنفسه.

من مكانه كان يتناهى إليه صوت مصطفى المنفعِل، والذي خمَّن من نبرته احتدام النقاش بينه وبين مريم. طالما كانت

علاقتها بهذا الولد مفخَّخة بسوء الفَهْم والشِّجار، وفي حين كان عمرو ولدها المثالي كان مصطفى في نظرها أقلَّ مما ينبغي لولدها أن يكون، كانت لا تُفوِّت فرصة للتباهي بالأول في تجمعات النساء في فرح أو مأتم، بينما تنقلب نبرتها إلى نبرة أم مرزوءة تتحسر على جهدها الضائع إذا ما ذُكر الآخر. بالنسبة لها كان طفلًا جلَّابًا للمشكلات، مُستنزِفًا لطاقتها بشكل كان يستعصي عليها تقبّله بدون التذمّر والجأر بالشكوى في كل مناسبة وبدون، وعندما كبر تحولت نعوتها له من المشاغب والشقي والعفريت وموجع قلبها إلى نعتٍ أشد ضَرَاوة وأكثر إيلامًا لقلب مصطفى، كانت تُناديه في أوقاتِ الخلاف التي لم تكن بالقليلة: يا خيبة أملي.

لم يستطع إسماعيل من مكانه أن يفهم سبب الشجار هذه المرة لأنه بدأ بوتيرة خافتة لم تُتح له سماعهما، لكنه سمع كل شيء عندما اشتعل الموقف بينهما..

- «لا أسامحك في حليبي الذي كبرت به!»

قالت مريم كما لو كانت تُشهر سلاحًا أبيض في وجه الخَصم الذي أعْيَتها هزيمته بطريقة أخرى.

- «لم تسامحي فيه في أي وقت مضى، حتى هذا تعتبرينه كثيرًا عليَّ يا ماما، أتُسامحين في كلمة «ماما» أم تسحبينها مني هي الأخرى؟»

- «ستُميتُني بالسَّكتة، ما الذي أخطأت فيه في تربيتك؟ ماذا فعلت لكي أُبتلى بك؟»

- «تربيتك كلها عبارة عن خطأ كبير يا سيدة مريم، لم أفلح في إرضائك بأي شكل، دائمًا كانت هناك طريقة أفضل من طريقتي لفعل كل شيء، وهي الطريقة الخاصة بعمرو، لم تنظري إليَّ إلا لتوبّخيني، كنتِ تقولين دائمًا «انظر إلى أخيك كيف يفعل كذا ويفعل كذا»، وكنتُ أعرفُ أخطاء أخي السِّرية وأراكِ تُقدسينه على الرغم من ذلك!»

- «لم تتخلص قط من حقدك عليه!»

- «لم أتخلص من شعوري بالظلم لتفضيلك إياه ولعدم رؤيتي مع أنني كنتُ الأصدق، كنتُ مشاغبًا كما تقولين؟ نعم، كنتُ طفلًا، لكنني على الأقل لم أكذب، لم أرتكب الأخطاء في الخارج عن عمد ثم أتصنع أمامك وجه الملاك المُطيع، كنت أعترف بأخطائي وأعتذر عنها، لكنَّ هذا لم يكن يرضيكِ، إنكِ يا ماما لا تُريدين ابنًا صادقًا، لا يُناسبُك إلا ابنٌ كعمرو؛ يرتكب أخطاء الدنيا والآخرة من وراء ظهرك ويجيء ليأكل عقلك بكلمتين..»

- «لقد ملأ ابن عبد الحيّ قلبك بحِقده الأسود، إنك تتكلم بلسانه!»

- «الرجلُ منذ سنين وهو عظمٌ في تُربة وأنتِ ما زلتِ تقولين ابن عبد الحي، هل كنتِ تُحبينني قبل معرفتي بعمي عبد الرحيم؟»

- «ليعمَ عمى الدِّببة، لقد سمَّمك، صب فيك الجحود وكل خصاله الوَسِخة، إنك ابن تلك العائلة لا ابني، وعلى الرغم من أنني مَن ربَّاك لكنك أصبحت مثلهم تريد أن تُخطئ دون أن يُحاسبك أحد، تريد أن تفعل ما يحلو لك، وإذا حاول كبارك معاقبتك على أخطائك تتمسكن وتتشكي وتعتبر نفسك مظلومًا!»

كانت مريم تهدر كما لم يسمعها إسماعيل من قبل، وبدا له صوتها في تلك اللحظة أشبه بهدير محرِّك سيارة لا يفلح سائقها في العثور على دواسة المكابح.

- «لم تستطيعي يومًا مسامحتي، لا على أخطائي كطفل ولا على الشكل الذي اخترته لحياتي، حتى عندما حاولت أن أكون نسخة من عمرو لأنال رضاكِ لم ترضَي أيضًا، إنكِ تتعاملين معي كما لو كنتِ إلهةً من آلهة المصريين القدماء، لكنكِ لم تمنحيني بركاتك مهما قدمتُ لكِ القرابين، أفيقي يا سيدة مريم، لستِ إلهةً كما أنني لا أقبل بعد هذه اللحظة بمعاملتك الظالمة ولا بأن أستجدي العطف منك دون أن أناله!»

- «يا لك من ولد جاحدٍ! لقد ربَّيتُ في حجري ثعبانًا، لا أسامحك في حليبي!»

«ليخرج من عَظمي هذا الحليب العكِر ويعُد إلى صدرك، إذا كنتِ تعرفين طريقة، كقتلي أو دقِّ عظامي، فافعليها واستردي هبتَك التي تمُنِّين بها عليّ!»

حاول إسماعيل أن يبلع ريقه لكنَّ غصَّة كانت تملأ حلقه، يُحيِّره غضب مريم المُبالغ فيه وحنقها الشرس والدائم على هذا الولد، نعم، كان مُشاكسًا في صغره ولهذا كان يرى شكواها المستمرة منه مجرد تذمُّر أمٍّ شكَّاءَة لا تستطيع ممارسة واجباتها بغير هذه الطريقة، كان طفلًا مُتعِبًا صعبَ المِراس وقاصيًا مُنكفِئًا على نفسه في الوقت نفسه، لكنه ولدٌ طيب ونظيف القلب على الرغم من ذلك، صحيح أنه لا يجد طُرقًا كثيرة لإظهار طيبته لكن إسماعيل، وهو أبوه، يعرف أنه طيب ونظيف القلب، غير أن مريم لم ترَ ذلك ولو لمرة واحدة، والتذمر والحنق اللذان كانا يلازمانها في طفولة الولد ويعتقد أنهما سيزولان عندما يكبر وتقل مشاغباته ومشكلاته، تفاقما وزادت حدتهما حتى عجز إسماعيل عن أن يفسر شكل هذه العلاقة بين أم وابنها!

إنه يُدرك أن تأثّر مصطفى بالمرحوم عبد الرحيم هو ما يُؤجِّج حفيظة أمه تُجاهه، ويعرف حين تشتاط غضبًا وتلعن

سيرة عبد الرحيم أنها تلعن نانا في حقيقة الأمر، وما حِقدها على عبد الرحيم إلا لأنه أخوها، إن داخلها ما زال يمُور بضغينة لا تستطيع التنفيس عنها لترتاح، ولهذا لا توفر فرصةً للتعريض بغريمتها وهي توَدُّ لو صرَّحت بسبِّها عينًا بكل ما في قاموسها اللغوي من شتائم، وهو يفهم كُرهها الزُّعاف لنانا، لكن ما لا يفهمه أن تكرَهَ ولدها، وقد ظل يُغالط إحساسه تجاه أمومتها له طويلًا، غير أن علاقة مريم بمصطفى لا تبدو له علاقة أم بابنها، إنها لا تتذكر أنها أمه إلا عندما تريد أن تُوبِّخه وتُعدَّ أمومتها له من جملة جهودها الضائعة وأفضالها المجحودة، ومنذ ولدته لا يتذكر إسماعيل أنه رأى في عينيها حنانًا له، ولولا عاطفتها تجاه عمرو ورقيَّة لعزا جفافها تجاه مصطفى إلى طبع أصيل فيها، لكنها تستطيع أن تُحبَّ كأم، فلماذا تجيء غريزتها عند هذا الولد بالذات وتعطب؟!

تعالَى صياح مريم ومصطفى أكثر، وفي مكانه كان يذبحه شعوره بالعجز عن أن يفعل شيئًا، عن أن يصفع مريم لتكف عن كيل حقدها على نانا للولد الذي لا ذنب له، عن أن يمسح على رأس ابنه ويخبره أنه يحبه ويرى نظافة قلبه، وعن أن يقول «أنا هنا» فينتهي كل هذا، لكنهما ظلا يتشاجران ويتبادلان التهم.

- «إذا كنت أمًّا لا تُعجبك فلماذا جئت؟»

- «لم أجئ من أجلك، أنا هنا من أجل البيت»

- «البيت الذي لا يرى وجهك إلا في المناسبات؟»

- «ولكنه بيتي على الرغم من ذلك، ولن أسمح بالتفريط فيه»

- «هذا لا يخصك، لقد وافقتُ وانتهى الأمر، هو عرض عليَّ وأنا وافقت»

- «عرض عليكِ؟! تقصدين: استغفلك، أكل عقلك بكلمتين!»

- «لا شأن لك، أنا حرة»

- «حرة فيما يخصك وحدك يا سيدة مريم، لكن عندما تريدين أن تضعينا في كَرِش ابنك فلا أنتِ حرة ولا أنا سأقبل أن يُهضَم حقي»

- «لا حقَّ لكَ»

- «بل لي حق»

- «لك عندما أموت، عندها يأخذ كلٌّ نصيبه»

- «عندها يكون ابنك قد استولى على البيت ويقول: بموافقة من أمي!»

- «لن يفعل هذا»

- «لست مضطرًا لتصديق ثقتك العمياء، لقد ساعدتِه على أن يُبصِّم أبي على التوكيل، بسذاجة أعطيته الفرصة ليأكلنا جميعًا، لم يتأخر بعد التوكيل وأخبرك أنه يريد تحويل البيت إلى عيادة وعلى الرغم من هذا ما زلت تقولين لن يفعل، سيضعك وأبي في غرفة فوق السطح، ماذا تنتظرين أكثر لترَي أنه يستولي على كل شيء؟»

- «احتفظ بظنونك السيئة لنفسك، عمرو هو من يُنفق على هذا البيت، كيف تجرؤ على أن تتهمه وهو يتولى المسئولية في حين أنت مشغول بفشلك؟»

- «هذه ليست ظنونًا، أنا هنا لأقول لك إنني لن أسكت على أكل حقي أو حق رقية!»

- «لا يحق لك الكلام ما دمتُ حية»

- «لقد نسيتِ على الأغلب أنكِ أنتِ وعمرو من لا يحق لهما الكلام ولا التصرف في شيء، ما زال أبي حيًّا، صاحب هذا البيت ما زال حيًّا يا سيدة مريم، وأنتما سرقتماه وتريدان رمينا جميعًا في الشارع»

لا يعرف إسماعيل علامَ كان يبكي بالضبط؛ على اكتشافه أن مريم وعمرو سلباه بيته رغمًا عنه، لطَّخا إبهامه بالحبر قبل أسبوعين وضغطاه على ورقة لم يعرف ساعتها ما هي

ولا أخبره أحد، أم على كلمة مصطفى التي أصابته بقشعريرة في قلبه، تلك الكلمة التي قالها فكأنما صبَّ على إسماعيل دلو ماء بارد في ليلة شتاء، كأنه أزاح غبارًا كثيفًا عن حقيقة نسوها جميعًا:

- «صاحبُ هذا البيت ما زال حيًّا..».

(٦)

لم تدخل له مريم بعد رحيل ابنهما صافقًا الباب خلفه، كانت قد حقنته بالفيتامينات ولم تحقنه بدواءِ المَعِدة، ولهذا كان يشعر باضطراب معدته، كما أن مريم لم تدخل أيضًا في العاشرة والنصف لتُغلق المِذياع، ولا في الثانية عشرة لتنقله من الكرسي المتحرك للسرير حتى يأخذ قيلولته.

كان الضوء في الغرفة يُزعج عينيه اللتين يُخاتلهما النُّعاس، تجاوزت الساعة الثانية ظهرًا، وكان معتادًا على أن يكون نائمًا في هذا الوقت، كما أن المِذياع أصابه بالصداع، لا لأنه عالٍ؛ فقد كان الصوت منخفضًا، وإنما لأنه متواصل منذ الصباح. بدا أن مريم نسيته تمامًا، انشغلت عنه بغضبها، كانت تتناهى إليه من وقت لآخر أصوات من المطبخ والصالة، صوت زجاج يتهشَّم، صوت سُباب، وكانت مريم معتادةً على الكلام مع نفسها بصوت عالٍ كلما أغضبها شيء، تروح وتجيء من غرفة لأخرى، من المطبخ للصالة، وهي تُطلق اللعنات والشتائم بصوت مسموع، «ابنُ العاهرة، قال حقه في البيت، كسر حُقّه، بنت عبد الحي دمَّرت حياتي، تلك الساقِطة. زوَّجوني رغمًا عني، كنتُ أعرف أنه يركض خلفَها، قلتُ لهم لا يُحبُّني، لن ينظر إليّ، لن يراني، لم يستمعوا لي، لم أهنأ ليوم واحد، آه، ماذا فعلوا بي، لقد ضحَّوا بي،

سجنوني مع رجل مشلول، رجل لم يحبني، أخدم رجلًا لا يحبني، ماذا فعل لي لأكون خادمته؟ لا أستطيع تركه، القلب ابن كلب، ابن العاهرة يهددني، قال لن يسكت، ليركب أعلى ما في خيله، ذلك الفاشل الميئوس منه، لقد أفسده عبد الرحيم، الله يجحمه، كلها عائلة وسِخة، لم يُستطيعوا حكم البنت ولا تربية الولد، يقول لن أسكت، سيفعل شيئًا لعمرو، سيقتله، أنا السبب، أنا من ربيتُه، لم يكن عليَّ أن أسكت، كان عليَّ أن أقول لا، الآن يهددني، سيؤذيه بلا شك، لكن لا، لن أسمح له..».

كانت منفعلة، وتخيل إسماعيل وجهها في تلك اللحظة؛ وجه امرأة على أتمِّ الاستعداد لقتل أيٍّ كان من سيظهر أمامها وهي في تلك الحال، هاتفت رقيَّة وسمعها تكيلُ لها السباب هي الأخرى، تتهمها بأنها تحالفت مع مصطفى ضدها وضد أخيها، ويبدو أن رقية قالت لها إن مصطفى هو أخوها أيضًا لأن مريم ردت: «ما دمتِ حريصة على أُخُوَّته إلى هذا الحد فلتشبعي به، وانسي أن لكِ أمًّا!».

هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها إسماعيل ما تحمله في قلبها له، لقد فكر في الأمر كثيرًا من قبل، لكنه الآن يسمعها تقول صراحةً، قالت إنها أُجبرت على الزواج منه، قالت إنها لم ترَ معه يومًا واحدًا هنيًّا، إنه لم يُحبها، لم ينظر

إليها، وإنها أُجبرت على خدمته على الرغم من ذلك، بل قالت إنها محبوسة مع رجل مشلول، وبالرغم من أنه لم يحبها يوما ولن يفعل، ومن أنه يؤسّيه على نفسه عجزه بسبب شلله عن أن يُطلِّقها، وبالرغم من أن قلبه يطفح بالحنق عليها ويشعر بالرغبة في أن يضربها حتى الموت كلما رأى إلى أيِّ حد لم تُحسن تربية أبنائه، إلا أنه يشعر الآن بالشفقة نحوها، إنها امرأة مقهورة، أما هو فجلَّادٌ وقاتل، لقد عذَّبها بجُبنه عن اتخاذ موقف رجوليٍّ معها، بخنوعه أمام والده واحتفاظه بها زوجة يُحزنُه أنه يبيت معها كل ليلة تحت السقف نفسه.

دخلت مريم هذا البيت في السابعة عشرة من عمرها، كانت أقرب إلى الطفلة منها إلى أن تكون امرأة، وكان هو في الخامسة والعشرين، أكبر منها بما يكفي ليُنقذهما من زواج غير مرغوب فيه، كارثي، وتعيس، لكنه لم يفعل، كان كبيرًا كفايةً ولكنه لم يكن رجلًا كفاية، وكانت هي بريئة براءة الأطفال، وعلى الرغم من نفوره دائمًا من براءتها تلك، والتي كان يراها خضوعًا يُؤلِّب فيه جينات أبيه، إلا أنه يقول لنفسه الآن إن مريم كانت بريئة، وإذا كانت اليوم هذه المرأةَ التي يود أن يخنقها كلما تناهى إليه سوء تصرفاتها مع أبنائه، إذا كانت اليوم هذه المرأة السيئة والأم المسيئة، فإنه بنفسه مَن صنعها، كانت مريم من نوع النساء الشبيهات بالعجين، اللواتي بوسع الرجل أن يُشكِّلهن كما شاء، واللواتي يتشكَّلن

بحسب ما يجدن من أزواجهن، وهو شكَّل منها، بإهماله وقسوته ونفوره وعدم احترامه مشاعرها بينما كان يركض كما تقول خلف نانا، شكَّل منها هذه المرأة التي هي عليها اليوم، هذه المرأة المُتبلِّدة والتي يفور في قلبها الحقد على الرغم من ذلك.

إنهم جميعًا ضحاياه، مريم التي لم تنطفئ النار التي أشعلها في قلبها وظل يؤججها بلا مبالاة طوال الوقت، عمرو الذي استأصل ضميره كما لو أنه ورمٌ خبيث ورماه، مصطفى الذي بقي وحيدًا منذ موت عبد الرحيم والذي ظل يستجدي أمه محبتها دون جدوى، ورقية التي نَمَت وهي تشعر بالنَّقص لغيابه، وأخيرًا، هو نفسه.

دقَّت الساعة الثالثة، لثوانٍ سمع خفْق جناحي الحمامة متواصلًا وسريعًا، بوُسعه أن يدرك اضطرابها من صوت جناحيها، وقفت أخيرًا على حافة النافذة، لثوانٍ راحت تُحدِّق إليه بينما كان يبكي، ثم ربضت مكانها وسكنت تمامًا لنصف ساعة كما لو أنها ميتة، وفيما كان يجترُّ أحزانه ويجلد نفسه بأخطائه سمع صوت أبيه، نظر إلى كرسيِّه مُرتاعًا، ولم يكن قد أفلح قط في التخلص من الرعدة التي يرسلها في جسده حضور أبيه، فوجده هناك، يحدق إليه بعينين متربصتين، ويُضيِّق جفنيه كما لو أنه قنَّاص يتحيَّن اللحظة

المناسبة ليُطلق عليه، نطق أخيرًا وقال:

- «ما الفارق بينك وبيني يا إسماعيل؟ فيما تختلف عني؟»

وضحك ضحكةً مُجلجلة، وفي ثوانٍ رأى وجهه مكان وجه أبيه تحت الشارب الأسود الكثيف نفسه، أطبق جفنيه وباستماتة حاول طرد خياله من الغرفة، «ليس الآن، ليس الآن!»، كان يردد في نفسه، وظل مُغمضًا لدقائق، «لستُ مثله، لم أكن يومًا مثله، إنه مُتجبر وأنا جبان»، كان يفكر وصدره يعلو ويهبط، وكان يعرف أن خيال أبيه سيتركه وشأنه، كما في كل مرةٍ، إذا نجح في ألا يتجاوب معه أو أن يُصدِّق على ما يقول، مُجرَّد أن يردَّ عليه ولو بإنكار الشبه بينهما سيفتح بابًا للكلام وسيُطيل بقاءه، إن إسماعيل فطِن لهذا الفَخِّ ولن يقع فيه.

حين فتح عينيه بعد دقائق كان الكرسي خاليًا وكان أبوه قد غادر، تنفس الصعداء وأدار حدقتيه ناحية الحمامة، كانت ما تزال جاثمةً هناك بجفنين مُغلقين، لم تكن تندُّ عنها أصغر حركة، أوجس في نفسه أنها ماتت وملأه هذا الخاطر بغمٍّ عظيم، مع أنها أثارت حنقه عندما جاءته أمس، وفيما كان يُقلِّب حزنه على موتها تحرَّكت الحمامة، وقفت على ساقيها الدقيقتين، نفشت ريشها وارتفع جسدها كما لو أنها تتمطى، ثم طارت.

***

كانت الساعة قد جاوزت الرابعة والنصف عندما سمع جرس الباب، فتحت مريم بعد الدَّقة الثالثة، ومن هناك وصله الصوت الجَهْوَرِيّ لأخته نورة والجلبة التي تُحدثها بحضورها الصاخب حتى في أكثر الأوقات وُجُومًا، أخته العزيزة نورة! لم يرَها منذ أشهر، ولا يصعب عليه الآن أن يحزر أن مصطفى هو من استدعاها، أخبرها ما فعلت مريم وما ينوي مصطفى فعله فوضعت عباءتها وشالها وركبت سيارة ابنها الأكبر من بورسعيد لتضع حدًّا لكل هذا. إنه يشتاق إليها، وفي هذه اللحظة يدعو الله كثيرًا أن تدخل غرفته لتراه قبل أن تغادر، وألا تُغضبها مريم فتحمل نفسها وتترك البيت وهي تقول: «سأغادر بكرامتي ولن أخرج من بيتي مرة أخرى.».

سمع صوت ماء يرتطم بمعدن حوض المطبخ، إن مريم تُعدُّ الشاي لأخته، ظلَّ الصنبور شغَّالا لدقائق قبل أن يسمع صوت نورة في المطبخ أيضًا، لعلها استأخرت مريم أو استشفّت من تأخرها أنها تتهرب منها.

- «ما هذا الذي سمعته يا مريم؟»

- «ماذا سمعتِ؟»

- «لا تسوقي العبَط، هل أخذتم بصمة أخي على عقد توكيل

لعمرو؟»

- «لقد ركض إليكِ إذن وأخبرك!»

«نعم أخبرني، عمرو وغرضه معروف، لكن أنتِ؟ لماذا فعلتِها؟ كيف سمح لكِ ضميرُك أن تسلبي الرجل بيته في حياة عينه؟»

- «لم أسلبه شيئًا، إنه لا يُفارق السرير منذ سنين كما ترين، عمرو هو من يتحمَّل نفقاتنا..»

- «وأنتِ انتزعتِ من إسماعيل توكيلًا لعمرو مُقابل إنفاقه عليكما؟ وهل يُنفق عمرو من جيبه؟ ألم تُحكِّميه على العطارة التي ورثها إسماعيل عن أبيه؟ ألا يقوم هو بتحصيل إيجارات الشقق كلها؟ أين يذهب بهذا كله إذا كان ينفق عليكما من عرق جبينه؟ هل أصبح عمرو مَن يُنفق على هذا البيت لأنه يُعطيكِ جزءًا من إيراد العطارة وإيجارات العمارة كل شهر؟»

- «إنه يتحمل هذا العبء وحده على الرغم من انشغاله!»

- «فقلتِ لأكافئهُ على هذا بأن أضع البيت أيضًا في يده؟ وماذا فعل بعد الحصول على التوكيل؟ يريد رميكما في غرفة بالسطح؟»

- «لا تقولي رمينا، البيت كبير على اثنين، سيفتح ابني عيادة هنا وسيعطينا نصف إيرادها»

صاحت مريم بانفعال بدا أنها كانت تحاول السيطرة عليه منذ بداية الحديث، خرج ماردها الآن من القُمْقُمِ الذي حبسته فيه.

- «سيعطي مَن؟ سيُعطيكِ، ماذا عن مصطفى ورقية؟»

- «رقية في رقَبة رجل يُنفق عليها، ومصطفى رجل يتحمل عبء نفسه، وعندما نموت يقتسمون الإرث..»

«أين الإرث يا مريم؟» صرخت نورة. «العطارة في يد عمرو منذ سنوات، والبيت أصبح الآن في يده أيضًا، أين الإرث؟»

- «لن يظلم إخوته!»

- «ضعي كل شيءٍ في يد ابنك الذي يحب القِرش أكثر من عينيه وقولي لن يظلم، إنكِ ساذجة!»

-«لقد ملأكِ ابن العاهرة بظنونه السيئة وحقده الأسود!»

-«حاسبي على كلامك، لستُ طفلةً ليخدعني أحد، أنا عندي سبعون سنة، وإذا كنتِ ساذجةً فأنا لستُ كذلك، ومصطفى الذي تسبِّينه هذا هو ابنك أيضا، لقد أعماكِ تفضيلك لعمرو!»

-«ابني؟! قصدك ابن العاهرة الذي وضعتموه في حضني

وقلتم أرضعيه يا مريم!»

«ما زلتِ في أوهامك القديمة!» قالت نورة بضجر ونفاد صبر.

-«لقد أخذتُ ابن الأفعى في حجري، ربَّيتُ في بيتي ثعبانًا بدأ ينفث سمه!»

-«لا تريدين أن تتخلَّي عن وهمك! من وضع في رأسك هذه الفكرة الملعونة؟! كيف بوسعك أن تُنكري ابنك؟! ألا يُوجعكِ قلبك وأنتِ تقولينها؟!»

- «ما يوجع قلبي أنني ربيتُ ابن الأفعى في بيتي!»

- «كيف تقولين إنه ليس ابنك بكل هذه الثقة!»

- «شعره أصفر!»

- «إنك مجنونة!»

- «هذا الولد ليس ابن بطني، أنا أعرف هذا، قديمًا تشفَّيتُ فيها، قلتُ نزع منها إسماعيل ولده لأربيه أنا، قلتُ لقد تركها إذن، تركها وأخذ ابنه منها، خدعتموني ووضعتموه في حجري بدل مولودي الميت، لكنني قلتُ «تركها» ورضيت، حملتُ ابنها في حجري وألقمتُه ثديي، وضعت ابن الأفعى في حجري كرامةً لإسماعيل، قلتُ لقد عاد إليَّ، لكنني كنتُ

مخطئة؛ تركها ولكن لم يعد إليّ، وأنا تعذَّبتُ بلا طائل، كلَّ يوم أرى فيه وجهها، أراها تُخرج لي لسانها، تقول لي لن أتركك تهنئين، تقول إذا لم يكن إسماعيل معي فلن يكون معك، تقول ابني في بيتك ليذكِّرك بي ولكيلا ينسى إسماعيل نانا، لقد وضعتم ابنها في حجري لتعذبوني!»

كانت مريم تشهق ببكائها المكبوت منذ سنين، تصرخ كأن جروحها حُفرت في جلدها للتو.

«لقد أكل الحقد دماغك!» قالت نورة بنبرة غاضبة وشفوق مع ذلك، «كراهيتُك لها هبلَتْكِ، إنه ابنُكِ يا مجنونة!»

صرخت مريم مع صوت زجاجٍ يتهشَّم:

- «ليس ابني! شعرُه أصفر!».

(٧)

واحدةٌ من أشد حسرات إسماعيل ألمًا أنه لم يلْمَس نانا، لم يُمشِّ إصبعيه على وجنتها، لم يشعر بملمس جلدها الرخامي على يده، لم يجلس معها في مكانٍ يخصهما وحدهما ويأمنان فيه من أعين الناس المُنقِّبة عن شيء يلوكونه، ربما لو فعل أيًّا من هذا لم تكن حسرته بكل هذا التوحش، وباستثناء المرة التي طبَّبت فيها جروحه وهو طفل، ليس في ذاكرة جلده أيَّة ذكرى ليديها، لذلك كان يعتني بهذه الذكرى كما يعتني صائغ ألماس بجوهرة ثمينة؛ يتناولها برقَّة حذِرةٍ من مكانها كل صباح، يمسح عليها بحنان، ثم يغمضُ عينيه ويترك لمستها تسيل على جلده وتُرسل فيه القشعريرة، لمستُها التي تُشبه البلسم، واحدةٌ من أشياء قليلة تستعيد بها أعصابه الحسية قدرتها على الاستجابة بعد بَلَادة طويلة، وليس بوسعه أن يُرجِّح إذا كانت تلك القشعريرة تسري في جسده حقًّا أم أن عقله يُحيله إلى القشعريرة التي في ذاكرته، إذ تبدو له حقيقيَّةً جدًّا، آنيَّةً جدًّا، وأكثرَ طزاجةً من مجرَّد ذِكرى.

لم يلمسها إسماعيل، وبالرغم من هذا تعتقد مريم أن مصطفى هو ابن نانا، ولم يعرف قبل هذا اليوم أن رؤيتها نانا في رَدْهة قسم التوليد بالمشفى يوم ولادتها لم تمر بسلام،

لقد سكتت ولم تُعلِّق، تظاهرت بأنها لم تَرَها، لكنه عرف الآن أن تلك المصادفة أشعلت شكوكها وظلت تنفخ فيها طوال اثنتين وثلاثين سنة، كانت ولادة نانا متعسرة وأخرجوا الطفل من بطنها ميتًا في شهرها الثامن، أما مريم فتظن أن ابنها هو من مات وأن زوجها سَلَب نانا ابنها وأعطاها إياه!

كيف بوسع قصة قديمة لم تكتمل أن تخلِّف كل هذا العدد من القتلى؟! كيف بوسع أمٍّ أن تصدق أن ابنها ليس ابنها فقط لأنه هو، إسماعيل المنكود، أحبَّ امرأة في الماضي ولم ينلها؟ كيف يُمكن أن تتوقف القصة في حياته عند نقطة ما وتظل مُكملةً مسارها الكابوسي في حيوات الآخرين؟

إنه ابنُها هي، ابن مُريم، يستطيع أن يُقدِّم لها الإثباتات على صحة ذلك، ويود لو استطاع أن يُقسم لها إنه لم يلمسْ نانا، لم يلمسها وبالرغم من هذا لا تصدِّقُ مريم إلا أن مصطفى هو ابنها، تخيل عذابها طوال تلك السنين وهي تربي ولدًا تعتقد أنه ابن أكثر امرأة تكرهها على وجه الأرض، تخيل عذاب مصطفى وهو يحاول أن يحصل من عينيها على نظرة رِضًا أو من يديها على لمسة حنون، وأصابه التخيّل بنوبة قيء حادة حسب معها أنه سيلفظ معدته نفسها بعد أن لفظ كل ما فيها.

هدَّ القيء قواه وأصابه البكاء بصداع وحرقة في عينيه،

دموع كثيرة جرت على خديه حتى أصبح وجهه بعد أن توقفت النوبتان ملطَّخًا بالدموع الجافة والقيء الناشف، ولولا أنه كان غارقا تمامًا في أحزانه لأضجره هذا إلى حد الجنون.

لما يزيد على الساعة ظلت نورة ومريم تتجاذبان أطراف حديث مُلتهب، كلٌّ منهما تتكبد المشقة في ضبط نفسها للمحافظة على أدنى حدود اللياقة، وحين تبيَّن لهما أن من المستحيل الاستمرار في هذا الحديث دون أن ينتهي بقطيعة عائلية قد تمتد العمر كله أعلنتا الاستسلام دون أن تتوصل أيٌّ منهما إلى نتيجة تُرضيها.

- «ظلمتِني قديمًا بهذا الولد والآن تريدين أن تظلمي به عمرو!»

قالت مريم بنبرة غضب عالية التردد وبقايا بكاء، أما نورة فقد نفضت يدها من الكلام معها ووضعت نقطة النهاية، قالت:

- «لا فائدة أبدًا. أنا سأرى أخي.».

كان صوتها عاتبًا، خائبًا، ومبحوحًا من كثرة ما صرخت، ووقعت خطواتها الثقيلة في سمع إسماعيل الحزين فاعتدل قلبه في مكانه ملهوفًا، ودارت حدقتاه وتعلَّقتا بالباب.

***

في كلِّ مرةٍ كانت نورة تزورهم وتجيء إلى غرفته لتراه كانت تُحاول الدخول فيمنعها ضيق فُرجة الباب بسبب الموقد خلفه، كانت أقصى مساحة يمكن أن يُوفِّرها دفع الباب حتى يلتصق بما خلفه غير كافيةٍ لمرور جسدها البدين، ومع التكرار طوال أشهر يئست ولم تعد تحاول، فكانت تُقنع نفسها وتُقنعه بالوقوف عند الباب، تلزم العتبة لربع ساعة أو أقل عندما تكون مُستعجلة للمغادرة، وعندما يكون وقتها فسيحًا تجرُّ كرسيًّا تضعه عند العتبة وتطلب من مريم أن تُدير كُرسيَّه ليكون في مواجهتها، تجلس هناك ربما لساعات وتُحدِّثه، تحكي له أشياء كثيرة، ولا تتوقف عن تلك الحركة التي يرتعش لها جسده وتدفعه إلى حافة البكاء؛ تمسح بيدها اليمنى على صدرها بتؤدة ورقةٍ كأنها تُمسِّد ظهر رضيع في حضنها، تفعل ذلك وهي تنظر في عينيه وتقول له: «يا حبيبي يا إسماعيل، كيف أنت يا نور عيني؟ كيف أنت يا حبيبي؟ أختك جاءت إليك يا قلب أختك»، ويشعر إسماعيل بدفء كفِّها تروح وتجيء بحنان على ظهره، فيرغب في أن يبكي حتى تلمسه أكثر، ويرغب أن تأخذه في حضنها فيلبث هناك إلى يوم الدين.

في كل مرةٍ تجيء أخته وتحدِّثه من خارج الغرفة يتذكر

قصة المسخ لكافكا، الرجل الذي يستيقظ ذات صباح فيجد نفسه وقد تحول إلى حشرة ضخمة لا تستطيع مغادرة الغرفة، وأخته رقيقة القلب التي لا تستطيع الاقتراب منه فتضع له الأكل والحنان من بعيد، كان هذا الشبه يملؤه كمدًا، وباستثناء فارقين اثنين لم يكن يختلف عن ذلك المسخ؛ الأول أن أخته تراه ويراها في كل مرة تجيء إليه، والثاني أنه ليس حشرةً ضخمة وإنما هو جسد هزيل، وباستثناء هذين يمكنه أن يكون إسماعيلَ كافكا في تلك القصة وتظلَّ كابوسًا.

هذه المرة لم تقنع أخته لنفسها وله بالحديث من خلف العتبة، فراحت تدفع الباب وتحشر جسدها البدين في الفراغ الضيق فتعجز عن الدخول، فتعود لدفع الباب مرة أخرى وإن كان الدفع لن يوفر مساحة إضافية ولن يُزحزح ما يعوقه في الخلف، كانت الغرفة مُتكدِّسة بشكلٍّ لا يمكن معه زحزحة أي شيء من مكانه، وكانت الأشياء مرصوصة في متوالية غير نهائيةٍ يدعم فيها الغرض رسوخ الآخر ويحول دون تحريكه ملليمترًا واحدًا، لكن نورة لم تنصَع لقانون الغرفة هذه المرة، كانت تدفع وتدفع مستمدة القوة من انفعال وعصبية قال لنفسه إن من حسن الحظ أنهما وجدَا ما يخرجان فيه، وكان الباب على الرغم من ذلك متمثرِسًا لا تندُّ عنه أصغر حركة، وظلا على تلك الحالة حتى أرخَث ذراعيها على جانبيها

ووقفت تتأمل الباب وسعْيَها الذي خاب، مرَّت ثوانٍ خُيِّل لإسماعيل فيها أنها قنعت بتلك النتيجة، لكن أخته كانت تُحدِّق في الباب بغضب كأنها تتوعده، ثم هوت عليه فجأة بقبضتيها وبكل ما فيها من غيظ وهي تحشرُ جسدها البدين بالجَنب، صدرت عن الباب قرقعة بدت له كصرخة ألم أو صيحة احتجاج، وفكَّر إسماعيل في قوة أخته الخرافية، ليست فقط القوة التي تتميز بها الأجساد الضخمة لرجال ونساء عائلة مشالي، ولا الصحة التي تظل موفورة حتى نهاية أعمارهم، وإنما تلك القوة التي تعبر عن نفسها بزهو في العناد، في التَّمَتْرُس خلف ما تريد حتى تحصل عليه، وهو الشيء الذي لم يستطع إسماعيل أن يفعله ولو لمرة واحدة في حياته!

لكن بالرغم من قوة أخته الخرافية وإصرارها الجدير بالإشادة كان جسدها ما يزال محشورًا في الباب، وكانت تُجاهد مجاهدةً مُضنيةً لتمر، كان بطنها الضخم يرتد إلى ظهرها مثل بالون تُفرِّغ منه الهواء، ظلت تحاول كثيرًا حتى تعبت، فرجعت إلى الخلف وراحت تلهث في شهيق وزفير سريعين وعاليين، وكان باستطاعته أن يرى صدرها يعلو ويهبط بشدة، ظلت على تلك الحال حتى استعادة قوتها وانتظم تنفسها، قالت: «هيا باسم الله» وأدارت جنبها للباب: وقفت على أطراف أصابع قدميها، شفطت بطنها إلى أقصى

ما يمكنها الشفط، ثم اقتحمت الفراغ بحركة سريعة وغريبة على سنواتها السبعين، إنها فعلا أخته الخرافية، وخلال عشر ثوانٍ فقط كانت قد خلَّصت جسدها الضخم من فتحة الباب كما لو كانت تسحب طفلا من بين فخذي أمه، لقد أصبحت أمامه أخيرًا، معه في الجهة نفسها من العالم، داخل غرفته المعزولة، هوت على رأسه وأمسكته بين يديها، راحت تُقبِّل وجنتيه وجبينه وتمسح على شعره مثل مدمنٍ نال جرعةً مُهرَّبةً بعد منع طويل، بكى إسماعيل كثيرا، انحنت نحوه وحملته بين ذراعيها، كان وزنه لا يتجاوز أربعين كيلوجرامًا، جلست به على طرف السرير، وكما لو أنه طفلٌ مدَّدت جذعه الميت والهزيل في حجرها واحتضنته، كان رأسه عند نحرِها، وهناك غرق أنفه في الرائحة الجميلة لأمه، الرائحة التي تضخ في قلبه شعورًا بالسكينة، مزيج من الكُحل والصندل، وفكر أنه كان من الأحسن له لو جاءت أخته يوم الجمعة، لو أنها أخذته في حضنها هكذا ومات، بهذه الطمأنينة، مع هذه الرائحة، وفي أثناء هذا الشعور بالخِفَّة.

كانت تضغط رأسه على صدرها وتُمسِّد بكفها ظهره الذي كفَّ عن الإحساس منذ زمن طويل، لكنَّ عينيه كانتا تلتقطان حركة جسمها ومشيَ كفها على ظهره فتبعث من ذاكرته ذكرى هدهداتها القديمة، تنوب ذاكرته عن أعصابه في مهمة الإحساس، ويشعر بنفسه طفلًا في الخامسة ينام على رجليها

وتُهدهده حتى ينعس، والفارق بين الآن وزمان أنها كانت في طفولته تُهدهده وهي تغني له: «يا سعده كتاكيتو»، أما الآن فتُهدهده وهي تبكي، وتسقط دموعها على وجهه فتكشط ملح دموعه التي جفت، انخرطا معًا في حديث من طرف واحد، على الأقل بالنسبة لها.

- «آه يا إسماعيل، يا قلبي يا أخي، أوحشني هذا الحضن يا عيوني»

وهو أيضًا كان مُشتاقًا لحِضنها، ويود الآن لو لم يخرج منه أبدًا؛ تعويضًا لكل السنين التي فاتت.

- «نصيبُك يا حبيبي، قسمتُك أن ترى كلَّ هذا الخراب حولك دون أن تقدر على عمل شيء، هل ترى ما فعله غيابك في عيالك يا أخي؟ اللهم لا اعتراض، عمرو يستولي على كل شيء، لا يفكر إلا في نفسه، هذا الولد شيطان يا إسماعيل، هل أقول إنه يشبه جدَّه؟ لا يشبهه، إنه شيطان من نوع آخر، يتمسَّح فيك طويلًا ثم يغرس فيك أنيابه فجأة بعد أن يكون خدَّرك، لم يكن أبوك يتزلَّف لأحد من أجل مصلحته، كان ينتزع ما يريده مجاهرًا بجبروته ومزهوًّا به، يريك وجهه الظالم دون لف ولا دوران، أما هذا الولد فلا تعرف حقيقته قبل أن يلدغك!

ومصطفى المسكين، عقَّدته مريم، لا يستطيع الولد حتى

الآن أن يتزوج، أسأله ضاحكة: ألا توجد من كل بنات الدنيا الواسعة واحدة شبكت قلبك؟ فيقول ضاحكًا أيضًا: مَن التي ستنظر إليَّ أنا يا عمتي! وآه لو عرفت المرارة خلف هذه النبرة المرحة، هذا الولد غلبان وقلبه طيب يا إسماعيل، لكنَّ جفاف مريم تجاهه جعله يصدق أن امرأة أخرى لا يمكن أن تحبه، وأن المشكلة فيه، قلتُ له مرة: عندك ابنتي زهرة، قال ضاحكًا كعادته: لا ترميها هذه الرمية يا عمتي، لن تسامحك! إنه كثير الضحك، لكنك تفهم عند النظر في عينيه أنه ضحك كاذب.

ورقية، حالُها حال، لا تقدر أن تغفر لزوجها أنه لا يستطيع أن يكون أبًا لها، زوج عادي جدًّا من الأزواج الذين تعرفهم؛ الحب والحنان بالنسبة له من شئون النساء الخاصة مثل الدورة الشهرية، تُخيفها أمها من الطلاق وتحاول أن تقنعها أن الرجال كلهم على هذه الشاكلة؛ جامدون ومشاعرهم غرائز لا يعبرون عنها إلا بشكل واحد، وعندما تشكو لي أخبرها أن بعض الرجال يحبون أيضًا ولكن ماذا إذا تطلَّقت ولم تعثر على واحد منهم؟ وأننا أحيانًا نُضطر إلى التخلي عن أحلامنا بالحب واختيار الأمان والستر في بيت مغلق وعدم الفرقة عن فِلذات أكبادنا، وأروي لها كل الحكايات التي أعرفها عن رجال ونساء أحبوا بعضهم وباءت زيجاتهم بالفشل، أقول لها: «كل شيء قسمة وليس بوُسعِ أحد أن يغير

قسمته»، تسكت ويبدو لي أنها اقتنعت، وأنا مقتنعة أيضًا بأن كل شيء قِسمة، لكن قلبي يوجعني عليها، ربما لو كانت تربَّت تحت جناحك ما كان هذا النقص في زواجها آلَمَها إلى هذا الحد، لكن أهناك نقص في زواجها حقًّا أم أن قلبها يُضَخِّم الأمور؟ لو كانت شبعانةً من حنانك ما انتظرته من غيرك، هل تعرف؟ إنني أحيانًا أُشفِق على زوجها، ليس مطلوبًا من الزوج أن يكون أبًا لزوجته يا إسماعيل».

«مسكينة رقية»، قال لنفسه، إن تراكم نَقصين في المكان نفسه من القلب من شأنه أن يحني قامة ابن آدم، يسير وجذعه مُعوَجّ، وأبناؤه الثلاثة مُعوجُّون كلٌّ بطريقته. إن الأطفال مثل النباتات المتسلِّقة؛ تحتاج دعامةً لتنمو باستقامة، ورحم الله الأستاذ عبد الحي، قال مرةً: «إذا سقط الأبُ اعوَجَّ الولد..».

- «إسماعيل، هل تبكي يا حبيبي؟»

شعرت بدموعه على نحرها العاري، أبعدت رأسه، ثبَّتته بكلتا يديها أمامها ونظرت إليه، كان يبكي، لم يستطع أن يمنع نفسه، مدَّت يدها وراحت تمسح الدمع عن وجهه، فتنبَّهت إلى القيء الجاف حول فمه وعلى لحيته النامية.

- «لقد أخرجتَ كل ما في بطنك يا حبيبي، يا نور عيني!»

قالت بلَوْعة وهي تُوزِّع قُبَلًا حزينة على جبينه ووجنتيه ويده، نادت مريم التي تثاقلت في المجيء، وطلبت منها مناشف نظيفةً وماءً بمُطهِّر وأن تُحضر لها أدويته، استاءت مريم من أخذها إسماعيل في حِضنها بتلك الطريقة، «كما لو أنني بعد هذا كله مُقصِّرةٌ فيه!»، قالت لنفسها، وفكرت أن الجحود ميراث في هذه العائلة.

«لا تُتعبي نفسك»، قالت مريم، «سأفعل له كل شيء عندما تغادرين»

لم تُعجبها نبرتها، وفكَّر إسماعيل: إنها لم تدخل عليه منذ الثامنة صباحًا، تركته على هذا الكرسي حتى بعد المغرب دون أدوية، ثم هي الآن تُعرِّض بطرد أخته لأنها أرادت أن تُصلح شأنه!

- «أنا مَن ستعتني بأخي هذه الليلة».

قالت نورة بحسم لا يقبل النقاش.

بعد دقائق جاءت مريم صاغرة بماء ومناشف، فتحت لها درج الكومود إلى جانب السرير وشرحت ما ينبغي أن يتناوله الآن متجاهلة الجرعات والأدوية التي فوتتها خلال اليوم، طلبت منها نورة محاليل التغذية وحفَّاضًا جديدًا وملابس تحتانية دافئة ومنامةً نظيفة، «الزرقاء السماوية»، أضافت،

إنه اللون الذي يُفضِّلُه أخوها.

برفقٍ بدأت مسح القيء الجاف والدموع عن وجهه، وحين انتهت تمامًا وقفت ووضعته في السرير بالراحة، اتجهت إلى الباب وأغلقته كيفما اتفق للباب المشروخ منذ قليل أن يُغلق، فكَّر إسماعيلُ: لمَ؟ إن مريم قد كشفت عوراته كلها منذ سنين وما زالت تراها كل يوم مرتين، بدأت فك أزرار قميصه ثم نزعت ما تحته قطعة وراء الأخرى بحذر، لم يكن ليُحسَّ لو أنها خدشته، لكنها كانت تحترز في لمسه كما لو كان يؤذيه الهواء الطائر، غمرت المنشفة في طبق الماء ثم عصرتها ومررتها على جلده، على رقبته وخلف أذنيه وعند الثنايا والمفاصل، نظَّفته بصبر ودأب، وعلى طريقة الأمهات القديمات مدَّت يدها في طوق عباءتها وأخرجت من حمالة صدرها كيسًا صغيرًا، فتحته وتناولت منه قارورة عطر في حجم عقلتي إصبع وراحت تدهن منها على طرفي إصبعيها السبابة والوسطى وتمسح خطوط جبينه وخلف أذنيه وفي ثناياه، وحين انتهت من نصفه العلوي ألبسته ثيابه؛ قطعتين تحتانيتين وقميص المنامة، وببطء وصبر لا يقِلَّان عن سابقيهما بدأت خلع الملابس عن نصفه الأسفل، وفي حين كانت تُنظِّفه راحت تواسيه، قال لنفسه إن الأخوات هن من يستطعن إماطة الأذى عنك وهن يُسمعنك عبارات المحبة.

بعد أن صلُح شأن إسماعيل ونظُف جسمه وثيابه فكَّر في أنه لو مات الليلة فسيموت في حال لائقة، وسيسره -لولا أنه مُحمَّل بالذنوب والأخطاء- أن يلقى الله طيِّب الرائحة نظيفًا إلى هذا الحد، خارجًا للتو من تحت عناية أختٍ حريصة.

أعطته نورة أدويته، علَّقت له محلول التغذية ووصلته بأنبوب الأنف، كانت الساعة التاسعة، أغلقت النور الأبيض وضغطت مفتاحًا آخر فملأ الغرفة ضوء أصفر خافت، جلست جنبه على طرف سريره وراحت تُمسِّد خدَّه بغبطةٍ كما لو كانت تُمشِّي يدها على مخمل، وكطفل سعيد راح في نوم عميق ولم يعرف متى غادرت أمه.

اليوم الثاني

كما لو كنَّا أطفالا يقذفُنا الحُبُّ عاليًا في الهواء فننتشي. كما لو كانت أُمًّا هلوعة تتلقَّفُنا الحياة، تُعيدُنا إلى الأرض، وتفتحُ أعيُنَنا.

(٨)

للمرة الأولى منذ وقت طويل لا يستيقظ إسماعيل صباحًا إلا عندما تدخل مريم الغرفة وتفتح النافذة، نظر إلى الساعة، كان العقرب الكبير يشير إلى أحد عشر، لقد تأخَّر في النوم وهذا لم يحدث منذ سنين، دائما كانت مريم تدخل عليه فتجده صاحيًا وقد زالت من عينيه كل آثار النُّعاس.

لقد كانت نومة طويلة حلم فيها بِنَانا، رأى أنهما يجتمعان تحت سقِيفَة عنب، كانت ترتدي ثوبها المنزلي الذي رآها فيه أول مرة عندما كان طفلًا، أما هو فكان ذلك الطفل نفسه، تناولا إفطارًا شهيًّا وأطعمته بيدها، ركضَا في حقول واسعة، وقالت له نانا بعد أن توقَّفَا وهي تلهث: «لن أتركك أبدًا»، لكنه وقد استيقظ الآن يفتش عنها بعينيه ولا يجدها، لا أثر لسقيفة عنب ولا حقل، وجد نفسه في غرفته الخانقة نفسها، مريم تعصر المنشفة بوجه رتيب مثل كل يوم، والضوء المتسلل للغرفة شاحب ولكنه كافٍ لإضاءتها، خمَّن أن الجو غائم وربما تمطر اليوم، وشعر على وجهه ببرد خفيف.

انتهت من تغيير حفَّاضه ووضعته في كرسيِّه المتحرك، كرسيِّه الذي لا يتحرك -إذا تحرَّينا الدقة- وبحركات ضجرَةٍ حملت طبق الماء والمنشفة لتغادر الغرفة، وقبل أن تخرج ضغطت زر المصباح الكهربائي فلم يُضئ، «يا فتاح يا عليم!»،

قالت بتأفف، ولم تنسَ قبل أن تغيب عن عينيه أن تتأفف أيضًا من الباب الذي شرختْه أخته بالأمس عندما كانت تحاول تمرير جسمها الضخم، في الحقيقة لم يكن مجرد تأفف، قالت: «كأن ثورًا هائجًا دخل منه!»، ورأى إسماعيل في هذا قِلَّة أدب، ولو كان يستطيع لأوصلها بحقيبة ملابسها إلى بيت أهلها.

على كلٍّ حال، إن الكهرباء مقطوعة، وهذا وإن كان يُضجر مريم ويعكِّر مزاجها فهو يُسعده ويروقه، بل إنه يتمنى ألا تعود الكهرباء قبل الليل، وهكذا يرتاح من الضوضاء التي تثير أعصابه كل يوم سواءً أجاءت من بيته أم من بيوت الجيران، المِذياع، صوت التلفاز، وهدير محركات الأجهزة المنزلية خاصةً الخلَّاط والمكنسة ومحرِّك دفع الماء، سيحظى بإجازة من هذا كله وما يسببه له من تعب أعصاب كل يوم، فأن تكون ملازِمًا الفراش لسنين هو شيء كالسِّجن المؤبَّد في زنزانة تُعاقب فيها بالضوضاء، وهو مُعاقَب بالحبس في غرفة تُطلُّ على المنوَر؛ حيث تطل نوافذ حمَّامات ومطابخ وغرف أطفالِ البِناية المكوَّنة من سبعة طوابق، لا تكاد تمضي ساعة دون أن تسمع صراخ طفل أو صوت خلَّاط أو محرِّكِ ماء، وتعرف أولًا بأول المشكلات العائلية لجيرانك الذين تقع نافذتَيْ مطبخهم وحمامهم في مواجهة نافذة غرفتك، لقد عرف كلَّ شيء عن تلك العائلة

التي سكَّنها أبوه قبل أن يُعطيه الشقة، فظلوا هناك حتى مات الأب والأم وتزوج فيها الابن الوحيد قبل أكثر من عشر سنين، عرف من خلال رائحة العدس كلَّ يوم ومشاجرات الزوجين بخلَ وتقتير الزوج، ومن مكالمات الزوجة مع صديقتها أنها كانت تُحبُّ رجلًا آخر قبل أن تُجبر على هذا الزواج، بل إنه يعرف أن الزوج على علاقة بامرأة من بنايتهم نفسها وإن كان لا يعرف تحديدًا من أي طابق، بدأت علاقتهما قبل ثلاث سنوات وما زالت مستمرة حتى الآن، وقد يبدو غريبًا بعض الشيء أن يعرف إسماعيل ذلك وهو ملازمٌ فراشه في هذه الغرفة لا يبرحها في حين لا يعرفه بقية السكان على الرغم من سيقانهم الحرة وأعينهم الدوَّارة في الاتجاهات كلها، لكن هذا بالذات ما مكَّنه من معرفة ما يجهله الآخرون، لأن الرجل والمرأة أمكنهما طوال ذلك الوقت – بطبيعة الحال مادام لم يُفتضح أمرهما حتى الآن- أن يرتِّبَا لقاءاتهما في شقة الرجل بكل ما في وسعهما من الحذر، ولكن كان من غير الممكن أن يتوقّعا افتضاحهما عند رجل مشلول يسكن الغرفة المقابلة للحمَّام الذي يقضيان فيه لحظاتهما المسروقة.

عرف بالأمر أول مرة عندما سمع الزوجة تهاتف أمها وتخبرها أنها ستخرج من البيت، وفهم من كلامها أنها ستبيت عندها يومين، وفي ظهر اليوم التالي سمع ضحكات

امرأةٍ في حمامهما، فعرف أن الزوج على علاقة آثمة بأخرى لسببين: الأول أن الزوجة عند أمها، والثاني أنها منذ جاءت إلى هذا البيت -وهو المتابع رغمًا عنه تفاصيل حياتها اليومية- لم يسمعها تضحك، وفي مرّات تالية فهم من أحاديث مقتضبة بين الرجل وعشيقته أنها من سُكّان البناية.

من الأشياء التي يودُّ إسماعيل اليوم لو استطاع فعلها أن يلكم هذا الرجل في وجهه حتى يُشوِّهه تمامًا؛ إذ طالما نزلت على رأسه الضربات التي كالها لزوجته فقلّبت ذكريات حزينة لديه، وأن يطرده من البناية.

على كلٍّ حال، إنه لن يستطيع فعل هذا أبدًا، وقد استسلم لإغراء التفاصيل فشغلته عما كان أخذ على نفسه عهدًا أول أمس أن يفعله: استعادةٌ جادة لأخطائه وذنوبه وما جعل منه ما هو عليه؛ بلا تشتُّت، بلا تضييع للوقت، ومتحررًا من كلِّ شعور ممكن بالشفقة على نفسه.

لسبب لا يعلمه إسماعيل، وفجأةً وبدون مقدمات، خطر له خاطر أسود عندما كان على وشك إغلاق الموضوع في رأسه، خاطر من شأنه أن يُصيبه بالجنون، وأن يُنغِّص عليه القليل المتبقي له من أنفاسه المنكودة، تردد صوتٌ في دماغه: «ماذا لو كانت مريم؟! ماذا لو أن زوجته هي المرأة التي تذهب إلى جاره في شقته؟!»، استعاذ بالله من

الشيطان، لكن الخاطر ظل يتردد في دماغه، يحاول دفع ولا يُمكنه!

-«مستحيل، غير معقول، إنها هنا طوال الوقت.»

«ما يُدريك أنها هنا طوال الوقت؟ إنها تدخل لك في ساعات بعينها، وفيما عدا تلك الساعات تغلق عليك باب الغرفة ولا تعرف أين هي بالضبط»، رد عليه ذلك الصوت في رأسه.

- «بل أعرف، إنها هنا في البيت طوال الوقت..»

- «كيف تكون متأكِّدًا إلى هذا الحد؟ هل كانت عندك في هذه الغرفة في مرة من المرات التي سمعت فيها ذلك الصوت من حمَّام الجيران؟»

سكت إسماعيل برهة يفكر، كان قلبه يغلي، وحاول أن يتذكر مرةً واحدة كانت مريم أمام عينيه حين سمع ذلك الصوت من حمَّام الجار، لكن ولا مرة كانت في غرفته!

«إنها مصادفة، مجرد مصادفة»، قال لنفسه.

-«مصادفة تتكرر عشرات المرات طوال ثلاث سنين؟ إنك تحاول أن تُقنع نفسك»

«لكن الصوت الذي كنت أسمعه من حمام تلك الشقة ليس

صوت مريم»، قال إسماعيل لنفسه.

-«ما يُدريك؟ أمن كثرة ما أضحكتها في أوقات خاصة كتلك تعرف كيف تضحك؟»

كانت تلك طعنة حقيقية في قلب إسماعيل، طعنة نافذة لم يجد بعدها ما يقوله ولا ما يدفع به الظنون عن رأسه، إذ ما الذي يمنع زوجته التي قالت أمس إنها لم تهنأ معه يومًا من أن تبحث عن الهناء -ولو كان قصيرًا ومختطفًا- مع رجل آخر؟

«لكن مريم ليست امرأة من هذا النوع»، قال لنفسه، فلا هيئتها ولا ملابسها توحي أنها قد تسعى لإغراء رجل في تلك العمر أو قد تنجح في هذا إذا حاولت، وقد خطرت في باله صورتها بجلابيبها البيتية الباهتة التي تُشمِّرُ كمَّيها إلى المرفقين، والإيشارب الكحلي الذي تعقد به رأسها إلى الخلف ولا تُغيِّره إلا قليلا، والرائحة التي تفوح منها حين تقترب منه لتُعطيه دواءه أو لتُنظِّفه، ذلك المزيج من روائح المطبخ ورائحة بيتٍ تسكنه العناكب، غير ممكن أن تكون مريم، لكن ما الذي يمنع؟ لقد تركت زينتها منذ زمن بعيد، ولكن هل يراها كيف تخرج من البيت؟ ألم يكن شاهدًا على جمالها الخام وفتنتها غير العادية إذا قُورنت بغيرها من النساء؟

كانت تلك الخواطر تعصف برأسه وتُشقيه، وآلمه في تلك

اللحظة أنه سيموت دون أن يعرف على وجه اليقين أكانت تلك المرأة مريم أم لا.

لكنه قرَّر أخيرًا، بصعوبة بالغة، أن يتوقف عن التفكير في الأمر لأن تفكيره لن يُقدِّم أو يؤخر، وكل ما سيفعله هو تعطيله عما كان يفعله.

«آه! لقد ضيَّعت الوقت فعلًا!»، قال في نفسه متظاهرًا بالاستياء من أدائه غير المُرضي اليوم، وقد أدرك جَرَيان الوقت فعلًا عندما أطلَّت عليه زوجته من جديد بمحلول التغذية.

***

عندما رأى نانا لأول مرة أحسَّ نحوها بشيء لم يستطع تفسيره، كان في التاسعة من عمره وكانت في الرابعة عشرة، صبيةً يعدُّها كل مَن في البيت -بسبب من رزانتها وحسن سلوكها- امرأة كبيرة، كان ساعتها أصغر من أن يعرف حب الرجل للمرأة، وربما كان انجذابه لها راجعًا إلى كونها أول امرأة غير أمه وأخته يخلع أمامها قميصه، هو الطفل الخجول الذي كان أبوه يُعيِّرُه بخجل البنات ترك لها ظهره العاري والنحيل عن طيب خاطر لتمسح جروحه، ولعله أيضًا كان مشدودًا إليها بقوة الحاجة إلى الصداقة، في طفولة كان يعيشها كالمتوحِّد منطويًا على نفسه، قد أفقدته معاملة أبيه

الثقة اللازمة للاندماج مع الآخرين من سِنه في المدرسة أو الشارع، ونانا بدت له حينها بنتًا رقيقةً للغاية، وأوحى إليه اهتمامها به أنه يُمكن أن يكون صديقًا لأحد ما، ويُمكن أن يوجد فيه ما يهتم له أحد ما، حتى ولو كان هذا الشيء آثار عصا خيزُران على ظهره.

قويت علاقته بأبيها، الأستاذ عبد الحي مُدرِّس اللغة الإنجليزية في مدرسته، والذي تعهده بعد ذلك اليوم بعناية مخصوصة أبان له فيها عن شفقة أب واهتمام معلم، فازداد تعلقًا بالمدرسة لأنها المكان الذي يرى فيها الأستاذ وابنته الجميلة، بعد أن كانت مجرد ملجأ يفِرُّ إليه يوميًّا من جحيم البيتِ ويتحرر -ولو بشكل مؤقت- من ولعِ أبيه بالتعنيف والضرب، وبعد أن كان يلزم فصله في الفُسحة بين الحصص صار يخرج إلى فناء المدرسة؛ إذ هناك يجتمع تلاميذ المرحلة الابتدائية وزملاؤهم بالمرحلة الإعدادية، فكان يبحث بينهم عن وجه نانا، في البدء كان يراقبها من بعيد حين يعثر عليها، ليس فقط لأنه خجول بطبعه ويفتقد الجرأة للمبادرة بالسلام وفتح حديث، وإنما أيضًا لأنه خاف إذا فعل ألا تُقابله بغير الشفقة، كأن تسأله مثلا: «كيف أصبحت الآن؟ كيف صارت جروحك؟»، ولربما كان سيراقبها من مكانه حتى يوم القيامة لو أنها لم ترَه.

كانت واقفة مع صاحبات لها وعندما لمحته من بعيد اتجهت نحوه، تظاهر أنه غير منتبه لها عندما أدرك أنها تقصده، لكنها عندما وقفت أمامه ابتسمت ابتسامة كبيرة كانت من أسعد ما حصل له في حياته..

- «إسماعيل، كيف حالك؟»

«بـ... بخير، شكرا لكِ»، قال بارتباك ووَدَّ لو استطاع الهرب.

- «إن بابا يحدثنا عنكَ كثيرًا في البيت»

«حقًّا؟!»، استغرب أن يكون أبوها يذكره!

- «نعم، يحكي لنا كم أنك ذكي ومهذب، أمس قال لماما إنك توَدُّ أن تصبح طبيبًا، هل هذا صحيح؟»

«آه! نعم»، رد بخجل وقد أحس بسخونة وجهه.

-«إنك طيب وتستحق، إن شاء الله ستصبح طبيبًا ماهرًا.»

لم يعرف كيف يرد، كان ذلك الثناء كله أكبر بكثير من قدرته على الاستمرار في المحادثة، مرة أخرى تمنى أن يكون باستطاعته الهرب فأنقذه جرس انتهاء الفسحة. وفيما بعد أخبرته نانا أن أباها لم يكن قد قال عنه شيئًا، وأنها زعمت ذلك حتى ترفع من ثقته لأنه كان خجولًا، ولتُشعره أنه لن يُحبس –بالنسبة لها أو لأهل بيتها- أبدًا في خانة الشفقة.

عندما تركت نانا المدرسة في نهاية ذلك العام الدراسي لم يطُل حزنه كثيرًا؛ لأن أباها كان قد بدأ يزيد من اهتمامه به إلى حد أن إسماعيل أصبح يذهب إلى بيته كل خميس بعد المدرسة، وكانت الساعة التي يقضيها هناك أسعد ساعات الأسبوع على الإطلاق، لقد شعر الأستاذ عبد الحي بحاجة هذا الطفل الوحيد إلى أن يكون له أصدقاء وأن يكون له مُربٍّ من نوع آخر مختلفٍ كل الاختلاف عن أبيه، بدأ بأن كان يعطيه قصصًا مناسبة لعمره من مكتبة بيته على أن يُنهيها خلال الأسبوع ويُعيدها له في المدرسة يوم الخميس فيسأله عما أفاده منها، وفيما بعد أخبره أنه يمكنه المجيء إلى بيته كل خميس بعد المدرسة؛ يعيد القصة ويعطيه درسًا مع أبنائه.

-«درسٌ في اللغة الإنجليزية يا أستاذ؟»

-«لا، في مادة أخرى، عندما تجيء ستعرف»

ولعشر سنوات بعدها ظل إسماعيل يذهب إلى بيته كل خميس، كان الأستاذ يعلمه مع أبنائه أشياء لا يتعلمها في المدرسة أو أي مكان آخر، «دروس المدرسة تصنع منك إنسانًا متعلِّمًا، أما هذا الدرس فيصنع منك إنسانًا نظيفًا»، كان الأستاذ يقول عندما يتبرم ابنه الصغير بالدرس لأن دروس المدرسة كانت كفاية بزعمه. شيئان أعادا إحياء إسماعيل

مرة أخرى: تلك الدروس، وحبه نانا.

هناك كان يراها، يراقب حركاتها وكلامَها، وكلما كبر اتخذت محبته لها شكلًا آخر، شكلًا ظل يتضح أكثر مع الوقت، وحين اكتشف لأول مرة أنه يحبها ذلك الحب الذي يكون بين الرجل والمرأة أدهشه هذا وأخافه. كانت أكبر منه بخمس سنين، وليست وحدها من سيقع في ألسنة الناس من أجل هذا لو أنها تزوجته، بل سيقع معها أيضًا، سيقولون إنه تزوج امرأة في مقام أخته الكبرى، سيشككون في رجولته لأن هوى الرجل يميل إلى المرأة التي تصغره، سيقولون تزوجها لأن تربية أبيه نكست فطرته وجعلته بحاجة إلى امرأة تحكمه لا امرأة يحكمها، لكنه لا يُعنى بشيء من هذا كله، ما يُقلقه حقًّا هو أن يكون لنانا الرأي نفسه، أن يكون بالنسبة لها الطفل الذي عرفته صغيرا هاربًا من أبيه وألا يتغير هذا في قلبها أبدًا، إذا رضيت نانا، إذا أحبته ووافقت به، فإنه لن يهتم بأي شيء آخر.

ما زال يذكر حتى الآن شعوره عندما عرف بتقدم أوَّل رجل لخطبتها، خُيِّل إليه أن العالم ينتهي، وأوحى إليه يأسه وشطط الحب في قلبه أنها إذا تزوجت رجلًا غيره فلن يستطيع العيش، كان في التاسعة عشرة، وكان أبوها قد رفض كثيرين قبل ذلك الرجل ولم يُدخلهم البيت؛ ليس فقط

لأنه أراد أن يتخير لابنته رجلًا كُفئًا، وإنما لتعلق نانا بأمها المريضة ورفضها في كل سيرة عريس أن تترك خدمتها والعناية بها، وعندما جاء ذلك الرجل كانت نانا تناهز الرابعة والعشرين، وبدا له أن أباها راضٍ عن ذلك الزواج وقد يدفعها إلى الموافقة به؛ قد يقول لها أخيرًا: «كنت صابرًا حتى يأتي من يستحقك، وإلا فلن تجلسي إلى جانب أمك طوال العمر!»، أرعبه هذا الخاطر ودفعه إلى أن يعترف لها بحبه، لم يكن سهلًا أن يراها وحدها في البيت ليُخبرها، لكنه فعل.

«لا تتزوجي ذلك الرجل»، قال لها، وكان غاضبًا وخائفًا أيضًا، قالها بغضب ولكنه كان يترجاها في حقيقة الأمر.

«لماذا؟»، سألته باستغراب، لم يُجب، وكان يتهرب من عينيها الكاشفتين.

- «إسماعيل، أسألك لماذا!»

«لأنك ستتزوجينني أنا»، قال بارتباك، قالها بسرعة مثل طفل يخاف من الماء فيغمض عينه ويلقي بنفسه في حوض السباحة دون تفكير؛ لأنه إن لم يفعلْها بهذه الطريقة فلن يفعلها أبدًا.

خيَّم صمتٌ مُقبض لثوانٍ ثم ضحكت بعده ضحكة مرتبكة، مذهولة، ثم استدارت لتذهب إلى المطبخ، سألها برجاء إذا

كانت ستتزوج ذلك الرجل، لكن أخاها سليمان دخل البيت في تلك اللحظة.

قضى إسماعيل أيامًا طويلة في غمٍّ وكرب، كان يتحيَّن أيَّة فرصةٍ ولو صغيرة للذهاب إلى بيتها، ولما حانت له تلك الفرصة ذهب يُقدِّم رِجلًا ويؤخِّر أخرى، متطلِّعًا ومرعوبًا في الوقت نفسه. جلس مع أبيها نصف ساعة يطمئن الثاني فيها على أحواله ومذاكرته، ثم قضى ساعة أو أكثر مع أخيها عبد الرحيم الذي كان متعلقًا به، كان يتظاهر بالاستماع لصديقه ولكن عقله وقلبه كانا مشغولَيْن بها، وظل يراقب باب الغرفة وينتظر بفارغ الصبر أن تدخل لسبب ما، رابَه أنها لم تقدِّم له واجب الضيافة وإنما أرسلته مع أختها الصغرى، قال لنفسه إنها بالتأكيد فعلت ذلك بسبب ما قاله لها في المرة السابقة، وحين كان قد يئس تمامًا واستعد للمغادرة لاحت له مثل أمل جميل ودقَّة قاضٍ قبل النطق بالحكم، لم تكن قد جاءت لأجله، أو هكذا خيِّل له، أخذت غرضًا ما من الغرفة وهمَّت أن تخرج فاستوقفها، سألها عن ردها على طلب الزواج، لم تُجبه، بل إنها تظاهرت أنها لا تنتبه لوجوده، ففهم من تصرفها أنها وافقت على ذلك الرجل، وعند باب الشقة ظهرت أمامه مرة أخرى، قالت له بسرعة وبصوت خافت:

- «لم أوافق ولكن ليس من أجلك، من أجل أمي المريضة

التي تحتاجني، ركِّز في مذاكرتك يا إسماعيل، عليك أن تُصبح طبيبًا ناجحًا إذا كنت ترغب في أن تكون مسموع الكَلمة».

كاد يطير فرحًا، لقد أعادت له روحه من جديد ثم دخلت وأغلقت الباب دون أن تنتظر منه ردًّا، وكان ذلك اليوم أسعد يوم في حياته.

(٩)

عندما أنهى إسماعيل دراسته في كلية الطب صرَّح لأمه أولًا برغبته في الزواج حتى تفاتح أباه، لم تسعْها الفرحة، زغردت، راحت تُقبِّل خدَّيه في جذل بينما تطفر من عينيها الدموع، لم يفهم هذا الفرح الذي يُبكي كما لم يفهم يومها رد فعل أبيه.

عندما كلمته أمه استدعاه إلى غرفته، ذهب إليه وهو لا يقدر على تخمين ما سيقوله له، وعندما استوى واقفًا أمامه سأله أبوه بعد أن نفخ دخان الشيشة من فمه:

- «مَن هي يا ولد؟»

- «اسمها نانا»

«لا أسألك عن اسمها يا حمار، وكأني سأعرفها عندما تقول نانا، مَن أبوها؟»، قال في انفعال وقع في قلب إسماعيل أنه نذير شؤم.

«إنها ابنة الأستاذ»، رد متلعثمًا.

- «أي أستاذ يا حمار؟ انشف يا ولد وكلِّمني كالرجال لأفهمك!»

- «ابنة الأستاذ عبد الحي، مدرس اللغة الإنجليزية»، قال

وهو يبلع ريقه بصعوبة، لم يخف في لجان الامتحان الشفهية كما هو خائف الآن.

- «ومَن –بسلامته- الأستاذ عبد الحي هذا؟»

«إنك تعرفه»، قال له إسماعيل وقد تذكر في تلك اللحظة ما قاله أبوه عن الرجل بعد المرة الوحيدة التي رآه فيها، انقبض قلبه وتضرع إلى الله أن ينقذه من هذه الورطة، أن يفعل شيئًا لينقذ حبه لنانا.

-«أستغفر الله العظيم! لماذا أسألك إن كنت أعرفه؟ لقد ابتلاني الله بولد أهبل كأمه!»

شعر إسماعيل بحنق لشتمه أمه، لكنه كان حنقًا جبانَ، مكتومًا، قال أخيرًا:

«إنه الرجل الذي أعادني إلى البيت عندما هربت وأنا في التاسعة»، قال بسرعة ثم أغمض عينيه، سكت كمن ينتظر انتهاء العد التنازلي لمؤقِّت قنبلة.

«آه نعم، قلتَ لي الأستاذ بسلامته، تريد أن تتزوج ابنة ذلك الكلب!»

-«نعم..»

-«هذا عندما ترى شحمة أذنك، تريد أن تتزوج الرجل الذي

تبجَّح في أبيك يا ابن الكلبة؟ لن تتزوجها ما دمتُ حيًّا..»

حاول إسماعيل أن يُناقشه في الأمر فاحتد غضبه، ولم يخلِّصه من يد أبيه إلا أمه في تلك الليلة.

-«سأتزوجها حتى وإن لم يرضَ، أنا مَن سيتزوج لا هوا!»

قال لأمه التي كانت تبكي، وكان جادًّا فيما يقول، كان يظن أنه قادر على أن يفعل ذلك، وذهب إلى الأستاذ عبد الحي في اليوم التالي وطلبها منه، لكن الرجل رفض أن يعطيه ابنته، لم تُفد إسماعيل كل تأكيدات المحبة التي حرص عليها الأستاذ على الرغم من الرفض، «إنك ستظل ابنًا من أبنائي مهما حدث»، قال له، لكن ماذا سيفيد إسماعيل أن يكون ابنه إذا كان سيحرمه من أكثر شيء رغب فيه من قلبه؛ من البنت التي يحبها؟

برفض أستاذه وأبيه الروحي فقد إسماعيل كل من كان ينتظر منه الدعم في هذا الأمر، وبالرغم من أنه لم يكن يُعوِّل على أمه التي لا حول لها ولا قوة أبت إلا أن تخذله هي الأخرى، فعندما عرفت -ولا يعلم إلا الله كيف ومن أين- أن البنت التي يرغب في الزواج بها تكبره بخمسة أعوام ولْوَلت وندبت حظ ابنها وسألته بالله وحب النبي أن يصرف نظرًا عن هذا الأمر، «لا تضيِّع نفسك!»، كانت تكررُ طوال الوقت ولا يفهم عن أي ضيَاعٍ تتحدث.

عندما عرف أبوه أن الأستاذ -بسلامته- رفض أن يزوِّجه ابنته ضحك، صاح بشماتة لم يجاهد في إخفائها وسمعها إسماعيل من غرفته: «هذا الخزي جزاء من لا يسمع كلام أبيه، إذا قلتُ لا يليقون فإنهم لا يليقون، الآن رفضك مَن لا يليق بك، أحسن!».

ولم يكتف أبوه بهذا، بل خطب له في الأسبوع نفسه ابنة عمته، مريم، ولم تكن قد بلغت السابعة عشرة بعد، «لن يحدث، غير معقول أن يحدث هذا»، لثمانية أشهر كان يقول لنفسه، لم تكن آلية نفسية للهروب، لم يكن يُنكر الواقع، وإنما لم يكن يستطيع التصديق حقًّا، تلك البنت التي لا يعرفها، لا يحبها، لم يرها إلا مرات معدودة، مستحيل أن يتزوجها، لكنه تزوجها في النهاية، رضخ لإجبار أبيه بعد أن تزوَّجت نانا، كانت زيجةً صادمة وسريعة، وما يُشعل الحسرة والغيرة في قلبه أنه حين سمع عن زوجها وسأل عنه لم يجد فيه عيبًا، قيل له إنه رجل يتمنى أي أب أن يحظى بمثله زوجًا لابنته، «لعلها فعلت هذا بدافع اليأس والحسرة»، كان يقول لنفسه حتى لا يُجنَّ وهو يفكر في احتمال أن تكون نانا قد رأت ذلك الرجل أفضل منه وأنسب لها منه، لكنه ظلَّ يبكي على الرغم من ذلك، بكى طوال شهور وبعدها صار بكاؤه في الداخل، في قلبه. تزوج مريم، وعرف كيف يُمكن أن يعيش الإنسان

حياته في انتظار الموت؛ غير آسٍ على شيء أو راغبٍ في شيء.

أول مرة رأى فيها نانا بعد زواجها كانت يوم حُملت إلى المشفى لتلد، في اليوم نفسه الذي وَلدت فيه مريم ابنه مصطفى وفي المشفى نفسه، وبسلطته كطبيب هناك عرف يومها أنهم أخرجوا الطفل ميتًا من بطن نانا في شهرها الثامن، حزن لأجلها، وحزن أكثر عندما عرف من إحدى الممرضات أنه الطفل الثالث الذي تفقده، «المسكينة يا دكتور لا يكتمل لها حمل حتى النهاية»، قالت له، وبعد أسبوعين عرف أن زوجها طلقها؛ إذ لم يعد يطيق صبرًا على إجهاضاتها المتكررة، «بنتكم مشئومة، بطنها ملعون لا يحتفظ بعيِّل»، قال لأهلها ثم ألقى عليها يمين الطلاق.

لم يعرف إسماعيل لماذا فرح عندما سمع بطلاقها، كان يعرف أن اجتماعهما إذا كان من قبل صعبًا فهو اليوم أصعب؛ إنه الآن متزوج وأب لطفلين، أبوه ما زال حيًّا، وأمه لا ترضى بزواجه من امرأة تكبره بخمسة أعوامٍ أضف إلى هذا مُطلَّقة، وأبوها الأستاذ عبد الحي يرفض أن يُعطيه ابنته إذا لم يطلبها منه أبوه بنفسه. «إنه مستحيل!»، قال لنفسه طوال شهور.

لكنه قرر أخيرًا أن يضع حدًّا لهذا العذاب، سيذهب إلى أبيها

ويطلبها مرة أخرى وليكن ما يكون، وبالفعل ذهب مُصرًّا على أن يأخذها هذه المرة، هوى على يدي الأب وقبَّلهما، بكى له، قال له إنه إذا رفض مرة أخرى فسيكون قد حكم عليه بأن يعيش الحياة جُثَّة، لكن الأب كان صلبًا لا يلين، حضنه وربت على كتفه وقال له: «إنك عزيزٌ عليَّ يا بني، الله وحده يعلم كم أُحبك، لكنني لا أعطي ابنتي لعائلة لا تقبلها؛ الإنسان كرامة!».

خرج إسماعيل من عنده جثة، ولكن بعد يومين ذهب له عبد الرحيم في عمله بالمشفى وأخبره أن أباه يستدعيه إلى بيته مساءَ اليوم، وعندما ذهب أخبره الأستاذ أنه موافق على الزواج، قالها بنبرة كسيرةٍ بدا لإسماعيل معها أنه مغلوب على أمره، لكنه لم يشغل باله، ما كان يهمه حينها أنه سيتزوج المرأة التي يحبها منذ كان طفلًا.

فيما بعد أخبره عبد الرحيم أن نانا حاولت الانتحار، ابتاعت حبوبًا مُنومةً وتناولت الشريط كله بعد أن تركت رسالة لأبيها تعتذر له عما ستفعل، «لم أعد أطيق سوء حظي يا بابا، لم أتزوج مَن أحب، وعندما تزوجت رجلًا لا أطيقه طلَّقني لأنني لم أُنجِب له»، روى عبد الرحيم لصديقه، فهم عندها ما حمل الأستاذ عبد الحي على الموافقة، وتذكر صوته المكسور وهو يقولها فأشفق عليه.

(١٠)

لا يعرف إسماعيل من أين عرف أبوه أنه سيتزوج نانا، كانت العائلة كلها في بيت أبيه ومنهم أهل زوجته، قال أبوه بينما يتناولون طعام الغداء جميعًا:

- «ابني الغضنفر يريد أن يتزوج الثانية»

قالها بنبرة لم يستطع أن يفهم إذا ما كانت تباهيًا أو سخرية، صدمَه أنه عرف، ولم تكن صدمة الآخرين أقل منه، تركت مريم المائدة راكضة إلى المطبخ وهي تُخفي وجهها بكُمِّها، في حين سرت همهمة في الحضور لم يستطع احتمالها فقام هو الآخر.

في اليوم التالي ذهب معه أبوه إلى بيت نانا ليطلبها، لم يصدقه، لكن لم يكن بوسعه أن يقول شيئًا. استقبله الأستاذ وأهل بيته بالترحاب، وعندما استوى جميعهم جلوسًا في غرفة الصالون وقدمت العروس القهوة قال أبوه:

«اسمع يا أستاذ، أنا كبَّرتُك وجئتُ إليك حتى بيتك، هذه المرة أطلب منك بلساني، أعقِل ابنتك عن هذا الأبله، إنه متزوج وأبٌ لطفلين وبالرغم من هذا ما زالت تلتف عليه مثل الأفعى، إذا لم تكن قادرًا على كفها عنه فأخبرني لأفعل..».

بعد أن انتهى، رشَفَ رشْفةً واحدةً من فنجان القهوة،

«دائمة إن شاء الله»، قال بلا مبالاة ثم قام وغادر دون أن يهتم إذا ما كان إسماعيل لحقه أم لا، لقد فعل ما كان يتوجب فعله وخرج وهو واثق أن الرجل لن يُعطي ابنته ولو انتقل إسماعيل للعيش على عتبة بيته.

أصيب الأستاذ عبد الحي في تلك الليلة بنوبة قلبية، ومات الرجل الذي أخبر إسماعيل أن الإنسان كرامة، وظلت نانا تشعر بالذنب طوال عمرها. عندما حاول أن يهوّن عليها بعد سنوات قالت له: «لم أقصد الانتحار يا إسماعيل، ابتلعت شريط دواء منوم وتركت باب غرفتي مفتوحًا وجلست على الأرض بجانب السرير وفي يدي الشريط، لقد فعلت كل شيء حتى ألفت نظرهم لينقذوني وكنت متأكدة أنهم سيفعلون، وحين اكتشفوا الأمر لم أكن مغمى عليَّ حتى، كنتُ أتظاهر بالإغماء، وكنت قد ابتلعت الحبوب لتوِّي، لقد سلمتُ أبي بيديَّ إلى حتفه، موَّتُّ الرجل بحسرته يا إسماعيل!».

***

بعد سنوات، في عام ٩٠ على وجه الدقة، التقاها مصادفةً في المشفى، ولم يكن يعرف أنها المرة الأخيرة. كان عبد الرحيم قد مات قبل ثلاث سنوات في حادثة سير، ولحقت به أمها بعد أشهر قليلة، بدت شاحبةً ولكن خُيِّل إليه أن شحوبها زادها جمالًا، وعندما عرفت أن أباه أيضًا مات قبل

عامين عزَّته فيه ولكنه ظن أنه رأى على وجهها شبح ابتسامة.

«لنتزوج إذن»، هكذا بعفوية وبدون مقدمات قالت له، الأمر الذي فاجأه وألجم لسانه ثوانٍ.

«هل أنتِ جادة فيما تقولين؟»، سألها أخيرًا بعد أن استجمع نفسه.

-«لم أكن جادةً في يوم ما بقدر ما أنا الآن»

-«وأخوكِ سليمان؟»

-«أنا كفيلةٌ به»

-«هل سيرضى أخوكِ هشام بهذا؟»

-«لا تفكر فيه»

«الأمر صعب يا نانا، لا، إنه مستحيل حتى»، قال ولم تكن المفاجأة قد خف وقعها عليه بعد.

-«اسمع يا إسماعيل، إنني أفترض أننا كبارٌ بما يكفي لنتكلم بصراحة، لقد عرضتُ عليك أن نتزوج، إذا لم يكن هذا يناسبك فقل مباشرة ودون كل هذا اللف والدوران، لا تتحجج بأهلي، قل بصراحة أنك لا تريد وضعْ نقطة.»

دومة الكتب حرامية

-«إنك لا تفهميننني، الأمر ليس أنني لا أريدك.»

-«ما الأمر إذن؟»

-«لن أستطيع أن أشفي جراحك!»

-«لستُ بحاجةٍ لطبيب يشفي لي جراحي، أنا أحتاج حبيبًا أصنع له القهوة ونحن نتبادل فيما بيننا صمتًا أليفًا حتى نستعد ببطء لتعب اليوم..».

-«لستُ رجلًا نبيلًا كما تتصورين، في رقبتي امرأة أجرمت في حقها وما زلتُ أظلمها، هذه المرأة ليست سوى زوجتي..».

-«لا أتصور أنك رجل نبيل. اسمع يا إسماعيل؛ ما أصابنا قد أصابنا ولم يعد يُمكن إصلاحه، سنعيش بعَطَبنا هذا وسنحزن ما تبقى لنا، عن نفسي رضيتُ بهذا أخيرًا، لكن ما رأيك بإمكان أن يكون ما سيأتي أخف وطأة على مُتعَبَيْن مثلنا؟ أن نعيش معًا بهذا الزهد المُريح في التعافي من جراح الماضي؟ أن نقضيَ معًا عقوبتنا على أخطائنا فنتحمل ثقل الندم بمشاركته؟ ما رأيك في إمكان أن نضع حبَّنا الشائخ في مواجهة أحزاننا اليومية الصغيرة ونقول له تصرَّف؟»

-«هل تعتقدين أن ما تبقى من هذا الحب قادر على مواجهة جميع من حولنا؟»

-«بالنسبة لي ليس الحب هو ما سيواجه، لم يعد الحب هو ما يدفعني نحوك، أنا مدفوعة نحوك الآن بشيء أقسى يا إسماعيل، هؤلاء جميعهم الذين تتكلم عنهم مشغولون كلٌّ في حياته، لم يُذنب أحد منهم في موت أبي، أنا وحدي من تعيش وتُمضي الليالي مع هذا العبء، إنني بحاجةٍ إلى شخص أُسند رأسي إلى رأسه بالليل ونندم معًا على الخطأ نفسه.»

أوجعه أن يكون هذا هو السبب، لكنه راضٍ بأن يكون معها حتى لو أخبرته أنها ستتزوجه لتعاقب نفسها.

اتفقا على كل شيء، كان من المقرر أن يتزوَّجا في اليوم التالي، أن يتقابلَا في مكانٍ حدَّدَاه ويذهبا معًا إلى المأذون، ذهب إسماعيل إلى الموعد يسوقه شَوْقُه وسعادته العارمة، لكنَّ مَن جاء كان أخاها، ظل هشام يوجه له اللكماتِ في الشارع دون أن يجرؤ المارة على التدخل، كان مليئًا بالغيظ والرغبة في قتله، ضربه حتى أدمى وجهه ثم قال له: «الموت أقرب إليك منها، إذا كنت تظن أن بوسعك أن تستغفلنا فأنت غبي، لقد حبسناها في البيت ولن يرى الشارع طرف عباءتها بعد اليوم، أما أنت فإذا رأيتُك في أي مكان فسأقتلك»، لكنه لم يرَ إسماعيل بعد ذلك اليوم في أي مكان، ولا إسماعيل مشى في أي مكان.

امرأة اللوحة

- «إسماعيل، إسماعيل.. بسسسسسس، إسماعيل!»

أغمض عينيه فور أن سمع النداء الأول، إنها هي مرة أخرى، كيف عليه أن يتخلَّص من هذه الجنية اللعينة! لا يريد أن يراها أبدًا، والآن بالذات لا تنقصه عجرفتها واستعراضاتها المستفزة.

- «قسمًا بالله يا إسماعيل إذا لم تنظر إليَّ لتريَنَّ مني ما يسوؤك!»

غشيه الخوف عندما تذكر المرة الفائتة، إن هذه المرأة الغريبة بوسعها أن تفعل أي شيء، وقد تعلَّم بالتجربة أنها حين تُهدِّده قادرة على أن تنفذ تهديدها مهما كان، ولهذا آثر السلامة.

- «نعم هكذا، أُحبك عندما تكون مطيعًا»

قالت بضحكة مُقتضبة، ومرة أخرى استفزَّه أحمرُ شفتيها الداكن، وخطر له أنها أكلت أحدًا ما قبل أن تأتي إليه، وعندها شعر بقشعريرة وتقزز.

-«أرى أنك ما زلت جادًّا في قرارك ذاك، إنه قرار هزْلي تمامًا يا إسماعيل، ما معنى أن تكون حيًّا في كل هذا عشرين سنة

ثم تقرر فجأة أن تموت يوم الجمعة؟»

إنها تعود للموضوع نفسه دائمًا، منذ أول مرة ظهرت له وهي تكلمه في هذا الأمر، وما يكاد يصيب إسماعيل بالجنون هو أنه لا يعرف ماذا يهمها في أن يموت أو يعيش أو يذهب إلى الجحيم، مَن هذه أصلًا وبأي حقٍّ تتدخل في حياته هذا التدخل!

-«ما شأني؟ تقول ما شأني؛ أليس كذلك؟»

إنها تعرف ما يفكر فيه! عليها اللعنة! لم يدرِ أتعرف فعلًا ما يفكر فيه أم أنها تتوقعه، لا بأس في الثانية لأن بوسع أي إنسان أن يتنبأ بردود فعل الآخرين وما يدور في أدمغتهم في لحظات بعينها، أما إذا كانت تعرف على وجه اليقين كل ما يخطر له، إذا كانت أفكاره مكشوفة لها، فهذه كارثة، كارثة من ناحية السبب كما من ناحية النتيجة، فكما يزعجك أن يكون رأسُك مفتوحًا ومَكشوفًا لأحد ما، يثير ريبتك أيضًا أن يكون كذلك، وتسأل عن السلطة التي لهذا الشخص حتى يرى ما تفكر فيه، وعن حدود هذه السلطة وما بوسعه أن يفعل بها. تسببت له هذه الفكرة في رعب وضيق غير قليلين، ولأنه بدأ يتوجس من الجِنّية حرص على ألا تُنبئ ملامحُه عن شيء مما يشعر به، وكان قبلًا يريد أن يتخلص منها لكن ما يبتغيه الآن أن يعرف أترى هذه العفريتة أفكاره أم

تتوقعها.

- «مزيج من هذا وذاك..»

اللعنة! قالت جملتها الأخيرة وعلى شفتيها ابتسامة البصير بِخَوَافي الأمور، وانتبه إسماعيل أنها الآن تجلس أمامه على طرف السرير، ربما خرجت من اللوحة عندما كان شاردًا في أسئلته، أصابه وجودها المفاجئ بارتباك لم يفلح في مداراته، لكن ما حيَّره أكثر أنها لم تعرف فقط ما دار في ذهنه، بل إن إجابتها أيضا مُحيّرة.

-«يعتقد بعض الروائيين أن الكتابة الروائية ليست تخطيطًا هندسيًّا لمبنى قيد الإنشاء، إنها مشي -أعمى وبصير في الوقت ذاته- داخل متاهة، بينما يعتقد آخرون أن مَن يصنع المتاهة هو الروائي نفسه. بالتبعية يرى الفريق الأول أن القصص موجودة مُسبقًا، وأن مهمة الروائي هي اجتذاب الشخصيات ومسح الغبار عنها ثم تركها تعيش وتتصرف على الورق، أما الفريق الثاني فيرى هذا مجرد سفسطة فارغة، وأن القصص تُستحدث من العدم ولهذا على كاتبها أن يضبط كل تفصيل فيها حتى لا تخرج القصة عن مسارها الذي رسمه لها..»

«ما شأني أنا بهذا كله!»، قال إسماعيل في نفسه، لكنها سمعته لأنها استطردت:

-«ما علينا، الأمر بالنسبة لي هو الشيئان معًا؛ الرواية متاهة نصنعها نحن، ولكن علينا أن نمشي فيها متظاهرين بالعَمَى، ثم نجد المخرج الذي كنا في حقيقة الأمر قد حدَّدناه منذ البداية، لأن القارئ يراقب خطواتنا داخل المتاهة يا إسماعيل، وسيلعنك إذا لم تستطع الخروج بنظافة من المتاهة التي صنعتها، كما لن يعجبه أبدًا أن يراك تعبر المتاهة كما لو كنت تتمشى في حديقة بيتك؛ تدل حركاتك كلها بسذاجة على أنك تحفظ الطريق سلفًا، هذا يُشبه أن تكشف عن نفسك كمُحرِّكٍ في مسرح العرائس، يشبه أن تُلقي على أذن القارئ درسًا حفظتَه ليلة أمس، ولا أحد يحب هذا النوع الرديء من القصص، لذلك وبعد أن شكَّلتُك وضعتُ نقطة البداية، حددتُ المخرج، ثم تركتك على راحتك يا إسماعيل، ولكنك تماديت كثيرًا، تريد أن تموت فعلًا يوم الجمعة، اكتشفت بينما أراقبك أنك جادٌّ في هذا، تتعامل كما لو أنك سيِّد هذه القصة! انظر إليَّ، إنني أُقدِّر رغباتك حقًّا، لكن هناك حدًّا لكل شيء، وعليك ألا تنسى نفسك، وألا تخرج عن الخطوط العريضة التي رسمتها لك!»

«يا لِهذا الأمر! إنها معتوهة»، قال إسماعيل لنفسه بينما يضحك في داخله، ما من تفسير آخر لهذا الهراء كله، تقول إنه غير حقيقيٍّ إذن، تخبره أنه شخصيةٌ شكَّلتها هي في

رواية، حقًّا؟ لقد مرَّ في حياته بكثير، ورأى كثيرًا من العفاريت في الطفولة والكهولة والشباب، لكنه لم يرَ قبل اليوم عفريتًا بهذا العتَه!

-«والآن.. كل ما عليك فعله أن تنسى أمر الموت، لا يوم الجمعة ولا في أي يوم آخر، لن تموت بنفسك؛ هل تفهمني؟ لأنه من غير المنطقي أن تعيش في هذا كله عشرين عامًا ثم تقرر فجأة أن تموت، والأكثر إثارة للسخرية أن تستطيع فعل ذلك، لا.. لا يمكن، انسَ هذا الأمر، لن أسمح بهذا!»

إنها تُصدِّق أنها مَن صُنْعه بالفعل! تقولُ لن أسمحَ بهذا، وكأن إسماعيل ينتظر منها الإذن!

-«لن أسمح بأن تضعني في هذا الموقف المُخزي لأي روائي؛ حيث تبدو كتابته ساذجة تفتقر إلى القدرة على التصديق، إنك تحب أن تعتقد بأنك حقيقي تمامًا، بأنك موجود وذو إرادة حرة، وأنا أحترم هذا، لكن هذا العالم كله، عالمك بكل ما فيه، أنا مَن اختلقه، وأنا مَن عليه أن يضع في نهايته نقطة بأكثر طريقة يراها مناسبة، كل شخوص الروايات متصالحون مع هذا الأمر ومستسلمون تمامًا لمصائرهم المكتوبة سلفا، لماذا تريد أنتَ أن تشذَّ عن القاعدة؟ وما المختلف فيك عن غيرك لتفعل؟!»

-«اسمعيني جيِّدًا، إذا كنتِ تتخيلين أنني مثل أيَّة شخصية

أخرى من شخوص رواياتك فإنك مخطئة، وإن كنتِ تُحبين أن تُصوري لنفسك أنك صاحبة الكلمة الأخيرة في هذه القصة فسيسعدني أن ألطِّخ تصورك هذا بالخراء وأسدَّ به فمك!»

قال في نفسه بكل ما يمتلك من الغيظ والحنق، إنها معتوهة وهذا كله هراء بلا شك، لكنَّه لم يفلح من قبل في التخلص منها بأيَّة طريقة، وفكر الآن أنه إذا أراد أن يفعل فعليه أن يتعامل معها بمنطقها هي، وقد فَهِم حتى الآن أن بإمكانها معرِفَة ما يدور في رأسه مادام لم يسعَ هو في أن يُخفيَه عنها ويُغلق نفسه أمامها، إذن بإمكانها أن تسمعه، وهذا جيد.

لكنه لم يكن جيِّدًا، لأنها ضربت بقبضتها على يد كرسيِّه فأفزعته المفاجأة، قامت عن سريره وراحت تدور حول نفسها في المساحة الضئيلة فخبطت كرسيَّه أكثر من مرة، كانت تسبُّه بأقذع ما في قاموس الإنسانية من شتائم، قالت له أخيرًا:

-«هل تظن أني سأقف مكاني وأتفرج عليك أيها الغبي؟ بسيطة، أنا سأمسح هذا الملف كله، سأريك!»

ضحك إسماعيل، ضحك من قلبه هذه المرة، قال:

-«يا إلهي! سيكون هذا رائعًا حقًّا، نهاية غير متوقعة ولكنها سترفع عني عواقب ما كنت سأفعله لأحظى بالمصير نفسه، أيُّ شيء أجمل من هذا يا عِفريتة؟ ألا يتمنى الإنسان عندما يتذكر وقفة الحساب وأهوال اليوم الآخر لو أنه كان ترابًا؟ لو أن أمه لم تلده؟ إنني أشدُّ على يدك وأثني على فكرتك الحكيمة، هيا، لنُنْهِ هذا الآن وإلى الأبد، هيا!»

قال جملته الأخيرة باندفاع طفل رأى لعبة أعجبته فتعلق بها، ما زاد غضبها حدةً وأشعرها بفراغ اليد وقلة الحيلة.

-«إنك تتعمد إغضابي، ولن تكون العواقب جيدة، ليكن في علمك!»

قاطعها صوت الساعة، كانت الثالثة عصرًا ودخلت مريم لتُغلِّق النافذة، كانت تُمطر وانتبه إلى أن تيار هواء قوي كان يصفع مصراعي النافذة فيضربان الحائط، بدا له أن زوجته لا ترى العِفريتة، ولم يكن هذا غريبًا، فليس كل الناس يرى العفاريت. لقد عطَّلته هذه اللعينة، يوشك أن يحل المساء ولم يفعل كثيرًا مما كان ينوي فعله، غدًا يومه الموعود وإذا استمرت الأمور على هذا النحو فلن يلحق.

-«حسنًا يا إسماعيل، إنك مُصمم على الموت غدًا كما أرى، حسنًا، ليكن..»

قالت وهي تزفر كمن هدَّ قواه نِقَاش طويل بلا فائدة، عادت أخيرًا للجلوس وبدا له أنها هدأت قليلًا، «أخيرًا، ستحلُّ عني»، قال لنفسه، لكنها بدأت حديثًا جديدًا بنبرة مختلفة كليَّةً:

-«إنك يا إسماعيل تثق في ذكائك وفَهْمِك كثيرًا عندما يتعلق الأمر بمريم، تتذمر طوال الوقت من أن شللك أعجزك عن طلاقها، ويزيد من حنقك عليها أنها «التصقت بك» على حد تعبيرك وكما يُصور لك رأسك المُعتد بنفسه، وأنت منذ بداية اليوم، وعلى الرغم من أنه من المفترض بك أن تتذكر أخطاءك وتحاسب نفسك، منخرِط في تذكر نانا والتحسُّر عليها، تدخل زوجتك وتخدمك وما إن تخرج حتى تعود إلى نانا، يا لك من رجل فعلًا! لكنني الآن أحب أن أريك جانبًا لم تره من قبل من شخصية مريم، أود منك أن تنظر جيدًا إلى زوجتك الساذجة التي كان مما بغَّضها إليك اعتقادك أنها خنوعة إلى درجة من شأنها أن تصنع منك نسخةً من أبيك، انظر..»

إن بوسعها أن تعرف ما يفكر فيه، لكنه لا يمتلك الميزة ذاتها، ولهذا فكَّرت أن تستغل الأمر لمصلحتها، لقد أدركت أن محاولة إثنائه عما ينويه لن تُجدي نفعًا ففكرت في آلية أخرى تصل بها في النهاية إلى ما تريد؛ ستُعطِّله، وستفعل

هذا بطريقتين في الوقت نفسه: بأن تضيع وقته وتخسف معنوياته.

***

الزمان: مارس ٢٠٠٧

المكان: غرفة أبنائه

الحدث: رقية تُريد أن تُطلَّق

-«إنه بارد وعديم الإحساس يا ماما، وإضافة إلى هذا يحسب أنه دائمًا على حق، أنا دائمًا المخطئة، ويضيق دائمًا بحاجتي إلى الكلمة الحلوة والاهتمام، يقول لي: «لقد تزوجتُ طفلة»، يعتبر نفسه عاقلًا وكبيرًا وأنا الطفلة، لكن عاديٌّ أن يفخر لشهر كالأطفال بشيء فعله أو كلمة مؤثرة قالها في مجلس، إنه لا يُطاق!»

-«الرجال كلهم هكذا يا رقية، لو طلبت كل امرأة الطلاق لأجل هذا ما ظلَّت زوجة في بيت!»

-«إنك تقولين الكلام نفسه في كل مرة!»

-«إنهم لا يفهموننا، حسنًا، وفي الوقت نفسه يظنون أن النساء لا يفهمن، وأن الله حين وزَّع العقول أعطاهم منها أجودها حصرًا عليهم وحرم منها النساء، «ناقصات عقل»،

ونحن نعرف أنهم يروننا على هذا النحو، لكننا نتعامل مع الرجل كما نتعامل مع الطفل؛ نبدي انبهارنا بما يسرد من بطولاته التي يحاول بها إثبات نفسه، ونقابل غضبه كل مرة بمزيد من الصبر والامتصاص، ونعتني به دون أن ينتبه لجهدنا المبذول في ذلك؛ ليس لأننا مضطرات للعناية به، ولكن لأننا هكذا، ماذا نفعل في أنفسنا؟ اللهُ خلقنا هكذا.

إن تغاضيك عن غرور طفلك الصغير ومجاراتك له في حكاياته الساذجة لا يعني أنك غبية، بل يعني أنك تتحلين بالصبر الكافي وسعة الدماغ من أجل التمرير لطفل أحمق حتى يتعلم، كذلك الحال بالنسبة للرجل؛ تغاضيك عن اتِّهامه لك طوال الوقت بالغباء وعدم الفَهْم لا يعني أنك غبية ولا تفهمين، أنتِ ذكية عندما تعاملينه كطفل، بل إنك أكثر ذكاءً لأنك تعرفين أن الطفل يتعلَّم بينما الرجل لا يتعلم..»

-«أنا غير مقتنعة بكلامك يا ماما»

-«وهذه هي مشكلتك، ولهذا لا تستطيعين التعامل مع زوجك والحفاظ على بيتك»

-«غلط، كما أن زوجي رجل مغرور ويعتقد أن الله لم يخلق عقلًا كعقله فأنتِ أيضًا تعتقدين الشيء نفسه عن النساء؛ أنهن أذكى وأن سكوتهن حسن تصرف، أنا لا أؤمن بهذا، إن كان الرجل غبيًّا فلماذا حكَّمه الله على بيته، هذا غير

صحيح»

-«صحيح أو غير صحيح، المهم ألا تهدمي بيتك..»

-«قولي لي هذا مباشرةً، لا تقولي أنتِ أذكى وزوجك طفل وكل هذا الكلام لأنه لن يجعلني أحتمله، بل سأكرهه أكثر..»

«ما قلت لكِ إلا الحقيقة، لكنك طوال عمرك رأسُكِ ناشف ولا تسمعين الكلام..».

استرده صوتها من المشهد القديم، كانت تضحك ضحكًا مستفزًّا كمن يشمت به!

-«قلت لي إن مريم لا تفيدك لأنك رجلٌ ماذا؟ لا تريد أن تكون نسخة من أبيك، ومريم خنوعٌ وتُغري أي رجل بالطغيان والغرور، إنها متمسكة بك لأنها تحبك أليس كذلك؟!»

قالت ثم ضحكت ضحكة شامتةً أخرى، قامت واقتربت منه وانحنت ممسكة بيدي كرسيِّه المتحرك، قالت:

-«مسكين يا إسماعيل، إنك أنت الغبي، مغرورٌ تمامًا وأحمق، عشت مع امرأة أكثر من ثلاثين عامًا ولم تفهمها لمرة، لم تفهم أن المرأة لم تتمسك بك من أجل سواد عينيك، وإنما لأن امرأة أخرى كانت تنافسها فيك، هل تعرف يا

إسماعيل، يا ذكي يا محبوب نسائك، أن مريم كابدت كثيرًا لتُطلَّق منك عندما أُصبت بالشلل وأيقنت أنك لن تكون مع نانا أبدًا؟»

ذُهل إسماعيل لهذا، لم يُصدِّق، اتسعت عيناه وشعر بغصة في قلبه!

-«نعم، حاولت كثيرًا ولكن دون جدوى، كانت تعتقد أن الذي كان ليعوق طلاقها مات، أعني أباك، لكن أباها هو مَن أجبرها، أي أنك تتذمر كل يوم لأنك لا تستطيع طلاق امرأة هي أصلا مَن لا يُطيق العيش معك!».

قالت كلمتها الأخيرة بهدوء، بمكر، ببراعة رامٍ يُصوِّب سكِّينًا إلى مُنتصف قلب الهدف.

اليوم الثالث

يظلُّ الإنسان يُثقل كاهلَه بالأخطاء والمظالم طوال حياته؛ بغرور، بعناد، ومن غير شعور بالذنب. فقط عندما يقترب من الموت يتذكر أنَّ عليه أن يُلقي عنه ذلك كله، وأن أهم ما في رحلته الأخيرة هو الخِفَّة.

(١١)

صباح يوم الجمعة، إنه اليوم الذي سيموت فيه. استيقظ إسماعيل مبكرًا على الرغم من أن عِفريتة اللوحة لازمته أمس حتى وقت متأخر فلم يستطع النوم إلا بعد منتصف الليل، كان ساعتها مستاءً ومحبطًا لأنه أحس أنه على هذا النحو لن يتمكن من تذكر أخطائه كلها قبل الساعة الموعودة، ولم يهدأ باله إلى الحد الكافي لينام إلا عندما قال لنفسه إنه سيستيقظ مبكرًا وسيُنهي كل شيء قبل الموعد المحدد، لكنه استيقظ اليوم وهو غير راغب في تذكُّر شيء، بل إنه أحس بالحماقة لما ظل يفعله خلال الأيام الماضية، إذا ماذا سيُفيده أمام الله أن يقول له: «لقد أعطيتُ نفسي قبل الموت ثلاثة أيام راجعت فيها جميع أخطائي بتفاصيلها المملة»؟ بدا له الأمر سخيفًا للغاية؛ أخطاء عمر كامل يتذكرها في ثلاثة أيام! ما أسخف هذا! هل يحاول أن يخدع الله؟ هل يظن أنه سينجو من الحساب على أفعاله بهذه الطريقة؟ يا له من أحمق!

حاول أن يواسي نفسه بأن الإنسان قبل أن يموت يتذكر أخطاءه وذنوبه ليتوب منها، ليندم عليها ويستغفر الله، «هذا صحيح، لكن كان يكفيني أن أتذكر الأخطاء فقط بدون الدخول في كل هذه التفاصيل»، قال لنفسه، ثم استطرد بعد

هنيهة: «ليس هذا فقط؛ بل إنني اعتقدت في نفسي أنني إذا حاسبت نفسي قبل الذهاب إلى الله فسيستحي أن يُحاسبني، والأكثر سخفا من هذا كله أنني لم أعمد إلى تذكر أخطائي فقط، بل قلت لأتذكر كل ما عشت وأسهم في صنع الإنسان الذي أنا عليه، وكأنني ظننته ممكنًا أن أتملص من خطاياي بهذه الطريقة الساذجة، وكأن الله يوم الحساب سيقول لملائكته: خذوه إلى الجنة فلن أستطيع أن أحاسبه؛ لقد حاسب نفسه يا ملائكتي، كما وليس مذنبًا في كونه ذلك الإنسان الذي فعل كل تلك المساوئ! هل كان ذلك كله -إذن- أقرب إلى الحيلة منه إلى الندم الصادق والرغبة الحقيقية في نيل المُسامحة؟»، سأل بشعور فظيع بالمرارة.

ماذا سيفعل الآن؟ لم يبدُ له أن قضاء الوقت في هذا الجلد العنيف لنفسه هو أفضل شيء عليه فعله في الساعات القليلة المتبقية، عليه أن يُمضي ساعاته الأخيرة في الدنيا في شيء أجدى وأنفع، شيء يجعله يموت بهدوء نسبي في نهاية الأمر.

إنه ذاهب إلى الله بعد قليل، ويُحس في قرارة نفسه أن الله ليس راضيًا عنه، يحس بهذا إحساس مَن يستحضر كل ما اقترف من خطايا، عن قصدٍ أو بدون، وليس بوُسعه حيال هذا إلا أن يترجَّى الله أن يرحمه، لكن خطر له فجأة خاطرٌ

حوَّل تفكيره إلى جهة أخرى: ربما ليس بوسعه أن يجزم إذا كان الله راضيًا عنه أو لا، لكن.. هل هو راضٍ عن الله؟ وإذا لم يتخلَّ الآن بالذات عن أقصى درجات الصدق مع نفسه فسيعترف بأنه عاش الأعوام العشرين الأخيرة يعتقد في قرارة نفسه أنه لم يكن يستحق أن يحدث له هذا كله، بل إنه، وبالجرأة التي يوفرها له عجزه الفسيولوجي عن نطق الكلمة بلسانه، يعترف بأنه ظل طوال ذلك الوقت عاتبًا على الله، في قلبه شعور لا يُعلن عن نفسه بصراحةٍ يشبه شعور المرء بالخيبة عندما يخذله شخص يحبه، وفي داخله سؤال ظل يتردد كثيرًا دون إرادة منه: «لماذا فعلت هذا يا رب»؟ صحيح أنه كان يطرد كل هذا عن رأسه ويستغفر فورًا، لكنه لم يكن يُحسن التخلص من هذا السؤال، كان يكرهُه ويعرف أنه سؤال خاطئ، لكنه كان يشعر بأنه سيهلك بسببه، لن ينظر الله إليه بسبب هذا السؤال الشيطاني، ألم تكن خطيئة إبليس التي هلك بسببها أنه حاسب إرادة الله؟ إنه هالك مثله لا محالة!

وعند هذا الخاطر كان يبكي كثيرًا، كان يخاف، ليس من النار وحدها، ولكن يُخيفه ألا يحبه الله في نهاية الأمر، ألا ينظر إليه ويرحمه ليستطيع أن يقول لنفسه: «لقد مرَّ كل شيء والآن سأرتاح»، أن يكون قد عانى كل هذا في حياته ثم مات ليُعاني أضعافًا لا يمكن مقارنتها بالدنيا. لكنه كثيرًا ما

كان يُخفف عن نفسه؛ إنه يطرد هذه الأفكار دومًا ولا يسترسل معها، يندم عليها ويستغفر منها، ولهذا كان يُطمئنُ نفسه بأن الشيطان هو مَن يوسوسها له، وأن قلبه بريء من هذا الشعور السيئ.

«أي إنَّك راضٍ عن الله؟»، سمع صوتًا من داخله

-«نعم، أنا راضٍ.»

-«حقًّا؟ أم تقول هذا لأنك ستموت بعد قليل وتحاول الآن أن تعقد مع الله صفقة: رضا في مقابل رضا؟!»

ارتجف إسماعيل، خاف وشعر بالمرارة، لكنه قال لنفسه: «إنه الشيطان من جديد، عليَّ ألا أسترسل معه في هذه الأفكار».

***

دقت الساعة مُعلنة عن السابعة، دخلت مريم في ميعادها اليومي المعتاد لتُغيِّر حفَّاضه وتمسح عنه آثار النوم، فكر وهو ينظر إليها متأمَّلًا الشعراتِ البيض في سالفيها الظاهرين من تحت الإيشارب أنها سترتاح منه أخيرًا، سيناسب الحداد جسدها الذي سيخلع هذه الثياب الرثَّة والتي بهتت ألوانها ليدخل في ثوب أسود حالك لا يُلبس إلا في المناسبات والمآتم، سيموت اليوم، وهذه المرأة المسكينة، هذه المرأة

التي تفوح من جسدها كلما اقتربت منه مزيج من روائح المطبخ ورائحة البيت عندما تكون أسقُفه مليئة بالعناكب، هذه المرأة التي دفنها منذ سنين سترتاح وتتنفس، فات أوان نفض التراب عنها، لكنها حيث هي ستقول عندما تجده ميِّتًا: «أخيرًا!»، ثم ستلتقط نفسًا طويلًا كمن كان ينتظر شيئًا حتى يئس منه فحدث في نهاية الأمر.

«إنها آخر مرة تطلع فيها على عوراتي»، قال لنفسه. لم يستطِع إسماعيل في يوم من الأيام أن يسامحها على هذا الأمر بالذات، إنها تعرف أنه لا يرضى بأن تكشفه على هذا النحو المُخزي له حتى لو لتُنظِّفه، دفعها المُحيطون إلى ذلك؟ لكنها كانت تعرف من خاصة حالهما معًا أنه لا يرضى، فطوال زواجهما حرص ألا يتعرَّى أمامها تمامًا، كانت غريبة عنه حتى وإن أُجبر على العيش معها كزوجة وإنجاب ثلاثة أبناء، لن يسامحها أبدًا، لقد كانت تعرف أنه لا يقبل التعري أمامها، وبالرغم من هذا عرَّته كل يوم مرتين طوال عشرين عامًا؛ كما لو كانت تنتقم.

خرجت بعد أن وضعته في كرسيِّه المتحرك، وكان شعوره بالمهانة من حملها إياه بين ذراعيها كطفل مُعاق أعنف منه في أي يوم مضى، ولساعتين انخرط إسماعيل في مشاعر متباينة من الحنق والغضب والشفقة على نفسه، ولم يثب

إلى رشده إلا عندما نادته المرأة في اللوحة.

-«بسسسسسس، إسماعيل»

نظر نحوها دون مقاومة هذه المرة.

-«أرى أنك اليوم عاقل. لقد تخليتَ عن فكرة الموت؛ أليس كذلك؟»

لم تستطع أن تتبين ما كان يدور في خاطره بعد هذا السؤال، استطردت:

-«أرى أنك توقفت عن تذكر أخطائك، إذن صرفت نظرك عن هذا الأمر السخي، أليس كذلك؟»

-«بلى.»

-«هذا رائع، رائع حقًّا، هذا أفضل شيء قلته منذ صنعتك يا إسماعيل.»

«يا لها من غبية ساذجة»، قال لنفسه.

-«ممتاز، الآن بوسعي أن أذهب إلى عملي مُطمئنة عليك وعلى سير الرواية، سأعود إليك خلال اليوم، سلام.»

«في ألف مصيبة»، قال في نفسه.

***

بعد قليل دخلت مريم وعلَّقت له محلول التغذية وأوصلته بالأنبوب، وفور أن انتهت راحت تجمع الأشياء من الغرفة؛ أخذت المِذياع وجمعت أدويته في كيس والتقطت بعض الأغراض من هنا وهناك، «الانتقال اليوم إذن»، قال لنفسه متفاجئًا، هذا يحتم عليه أن يبدأ الآن، عليه أن ينهي كل شيء قبل أن يُحمَل إلى غرفته الجديدة، كان ينوي أن يفعل الأمر في المساء لكن خطته لم تأخذ في الحسبان أمر الانتقال من الشقة، لم يكن يعرف بهذا، عليه الآن أن يُسرع، لا داعي للتوتر على الرغم من هذا؛ إنه مستعد، ولم يكن هناك على كل حال ما يفعله حتى حلول المساء.

عندما خرجت مريم أخذ نفسًا عميقًا وبدأ الأمر، نظر إلى كرسيّ أبيه، استجمع كل تركيزه في تلك النظرة، «لقد دمَّرني أبي»، قال في نفسه، استطرد: «لتحترق روحه في الجحيم»، وفي تلك اللحظة ظهر أبوه على الكرسي، متَّكئًا بيده اليمنى على عكازته البُنيّة اللون، كان غاضبًا يتطاير من عينيه الشرر.

-«ماذا قلت يا ابن الكلبة؟»

ارتجف إسماعيل وشعر بغصة في حلقه، لم يجب.

-«سألتك ماذا قلت، هل تدعو عليَّ يا ابن المرأة الذليلة؟»

«نعم، ذليلة، كانت ذليلة لأنها تلقَّت إهاناتك وضربك بفم

مُغلق، وذليلة كذلك لأنها احتملت أهواءك المنحرفة وعجرفتك الكاذبة»، أجابه بكل ما أمكنه من غيظ وحرقة على أمه، لكنه أيضًا كان يشعر بالخوف، لأول مرة في حياته يجهر في وجه أبيه بالشتيمة، لأول مرة يكلمه وهو ينظر في عينيه.

«لقد جُننت يا ابن الكلبة، لقد فقدت عقلك حتى ترفع عينيكَ في وجهي وتكلمني بهذه الطريقة»، قال أبوه مُغضبًا والرذاذ يتطاير من فمه.

-«أنت المجنون، إنك مريض صدقني، لست طبيعيًّا، مكانك المناسب كان مصحة العباسية لا البيت!»

«ليلة أمك سوداء!»، هدر أبوه متوعِّدًا.

«أمي الآن في مكان لا تستطيع أن تطالها يدك فيه»، قال إسماعيل مُستفزًّا إياه وهو يشعر بالانتصار، إن خطته تسير كما أراد بالضبط.

-«لكن يدي تطالك أنت يا ابن الساقطة»

«لا ساقط غيرك، لقد اعتبرتَ الناس كلهم حميرًا وكلابًا، كنت أنت الحمار وأنت الكلب»، قال وقلبه يرقص، لقد بدأ ينتشي بالتنفيس عما ظل يثقله طوال سنين دون أن يجرؤ على التعبير عنه.

-«لن أرحمك، هذه المرأة لن أترك فيك نفسًا يتردد في هذا الصدر الوَسِخ»

«هل تعرف أعلى ما في خيلك؟ اركبه»، رد عليه وهو يضحك مستهزئًا.

قام الأب من مكانه، خطا خطوتين نحو إسماعيل، رفع عكَّازته وهو ينظر في عينيه بتوعد، كان إسماعيل خائفًا، كان قلبه يرتجف وشعر بسخونة البول يتسرب بين فخذيه، لكنه كابد حتى لا تشف عيناه عن ذرة من الخوف؛ كان يعرف أن غرور أبيه يتغذى على رؤية الخوف منه في عيون مَن حوله، لم يُرد أن يُرى خائفًا منه هذا اليوم بالذات، رفع الأب عُكَّازته عالية في الهواء، أغمض إسماعيل عينيه ثم شعر بالضربة تهوي على كتفه الأيمن، لم يكن ينتظر هذا، كان يودُّ أن يحدث الأمر سريعًا دون عذاب طويل، شعر بألم الضربة قاسيًا وعنيفًا، ابتهل قلبه إلى الله أن ينتهي كل شيء بسرعة، لكن الأمر استغرق ساعتين.

استمر أبوه في ضربه عشر دقائق، كان يهوي بالعصا على كتفيه، على بطنه، على رأسه وظهره، كان الألم فظيعًا، أعاد إسماعيل إلى تلك الأيام البعيدة التي كان يُضرب فيها بعصا الخَيزُران حتى تتبلَّد أعصابه الحسية فلا يعود يشعر بجسده، لكن أعصابه لم تفقد حساسيتها للألم هذه المرة،

ظلت منتبهة وشغَّالة حتى اللحظة الأخيرة، وبعد أن توقَّف أبوه عن الضرب وهو يلهث من فرط الإعياء كان إسماعيل قد كُسِّر تمامًا، كان يشعر بذلك؛ بأنه متكسِّرٌ ولم يعد في جسده عضو واحد من شأنه أن يستكمل حياته.

طوال الساعتين التاليتين كانت تتراءى أمام عينيه صور وأصوات كان يعرفها، رأى عبد الرحيم يترجَّاه أن يأخذه معه إلى لبنان، ورأى الكدمات على جسد أمه عندما كشفت ساقيها دون أن تنتبه لوجوده، وسمع صوت نزهة الذاهل والقصي: «شقوا بطن ماما يا عمو وأخرجوا أخي من هناك!»، سمع نداءات الجنود في مكبِّر الصوت تأمرهم بالخروج، وسمع الرصاصة التي استقرت في رأس صديقه منصور، وتتابعت أمام عينيه مناظر الجثث المكوَّمة في الشوارع قبل مغادرته شاتيلا، قالت له نانا مرة أخرى: «أريد شخصًا أُسند رأسي إلى رأسه بالليل ونندم معًا على الخطأ ذاته»، وسمع صوت الأستاذ عبد الحي يقول في درس من دروسه: «خلق الله الحياة والموت ليختبر الإنسان، الأمر لا يبدأ هنا، ولا ينتهي هنا»، كانت أصوات خبط تنتهي إلى سمعه من الصالة، لم يستطع أن يميزها عن بقية الأصوات، كانت مريم تحزم الأغراض التي ستحملها معها إلى غرفة السطح، وباعتقاد أن هذا الصوت قادم من ماضيه لم يستطع أن يتعرف إليه.

فكَّر في كل الأشياء التي ستظلُّ مُعلَّقةً عندما يموت، في عدم معرفته إذا كانت مريم خائنة أو بريئة، وفي عدم اطِّلاعه على بقية رسائل ابنته في الدُّرج السفليّ، وفي مِفتاح بيت الشيخ حمدون الفلسطيني في حَيْفا، وخطر له أن هذا سيخلق مشكلة حقيقية، مشكلةً كبيرة صعبة الحل؛ إذ كيف سيرجع أبناء حمدون إلى بيتهم في فلسطين والمفتاح معه وهو يموت الآن دون أن يُخبر أحدًا بأمره؟!

سمع صوت جنيّة اللوحة، كانت تناديه لكن صوتها كان يصل له من بعيدٍ جدًّا، حاولت أن تمر إلى عالمه؛ رفعت ساقها إلى حد اللوحة لتعبر لكنها لم تستطع، «إذا استطعت المرور إلى ناحيتِك فسأنجح في إعادة الزمن إلى الوراء، ساعدني يا إسماعيل أرجوك، سأمسح هذا الجزء ولن تموت بهذه الطريقة»، قالت له، كانت تصيح وتصرخ، وكان يلزمُها أن تمر من اللوحة إلى عالمه لكي تمسحَ ما حدث منذ ظهور أبيه، لكنها لم تستطع بأيَّة طريقة.

عندما يئست من إمكانية المسح حاولت طريقةً أخرى، رجعت إلى مكتبها بسرعة وذهبت بمؤشر الكِتابة إلى ما بعدَ اللحظة التي تراها أمامها، لقد نجح إسماعيل بالفعل في تنفيذ خطته لكن أملها الأخير كان في جعل الخطة نفسها تبوء بالفشل، يمكنها فعل ذلك إذا جعلت أحدًا ينقذه، نعم،

يمكنها فعل هذا، بانفعال ركضت أصابعها على مفاتيح الحروف، أرسلت إليه نانا لتنتشله من رأسه، ستنجح في إبطال مفعول ضرب أبيه إذا استطاعت أن تُخرجه من ذاكرته، إن آثار الضرب موجودة فقط في ذكرياته، كانت الشخصية تموت أمام عينيها دون أن تستطيع عمل شيء، كتبت بدون توقف ولكن بدا لها أن ما تكتبه لا يؤثِّر في السير الفعلي للحدث، أدخلت نانا عليه الغرفة، لكنه لم يُعِرها انتباهًا، حتى إنها خالفت المنطق وجعلت نانا تلمسه كأنها زوجته لا مريم، «سأبرر هذا فيما بعد»، قالت لنفسها، لكنه لم يستجب لنانا، حاولت جعل الأمر كله يبدو كما لو كان حلمًا رآه وسيصحو منه، كما لو أن كل شيء منذ البداية لم يكن حقيقيًّا؛ لا زواجه من مريم ولا سفره إلى لبنان ولا موت عبد الرحيم ولا غير ذلك، جعلت نانا تمسح على شعره وتوقظه بدلال، لم يستجب للمستها ولا صوتها على الرغم من أن جفنيه ظلَّا يتحركان، إنها مستعِدَّة لفعل أي شيء خارج الحبكة فقط لتنقذه من مصير لم ترسمه له، لكن محاولاتها كلها باءت بالفشل.

كانت كل ذرة في جسده تتألم، تصرخ، وكان فمه مُطبقًا وصوته لا يخرج، آخر شيء رآه وأحس به كان أخته نورة، رأى نفسه بين ذراعيها وقد ضغطت رأسه أسفل نحرها وراحت تمسح على ظهره وتهز جسدها به. كان آخر حل في

جعبة جنيّة اللوحة رديئًا بشكل لا يُصدق: أن تُدخلَ عليه مريم وتجعلها بدون مبرر منطقي تحمله إلى المشفى، حدث غير ممهَّد له وحل قسري لعقدة مستعصية، لكنها فعلتها!

بدأ إسماعيل يشعر بأنفاسه تهدأ، تتباطأ، تبتعد، وبالنعاس يتسلل إلى عينيه، حتى سقط جفناه أخيرًا.

عندما دخلت مريم الغرفة لتأخذه مع ارتفاع أذان الجمعة من المسجد القريب كان كل شيء قد انتهى، وجدت رأسه ساقطًا على صدره فظنَّته نائمًا، انحنت عليه لتحمله من كرسيِّه فأحسَّت بشيء غريب، انقبض صدرها وضاق، وضعت ظهر كفها تحت أنفه فلم تشعر بنفَس، وضعت رأسها على صدره لأول مرة في حياتها فلم تسمع أي نبض، وعندما نظرت في وجهه نظرة متفحِّصة كانت أهدابُه نديَّة بدمع طازج.

(تمت)